

أسلوب القسم الظاهر في القرآن الكريم بلاغته ... وأغراضه

د. سامي عطا حسن
جامعة آل البيت - المفرق
المملكة الأردنية الهاشمية

ملخص

افتتح القرآن الكريم كثيرا من السور القرآنية بالقسم ، وأورد أقساما في ثانيا عدد غير قليل منها ، وأسلوب القسم في اللغة العربية من المؤكدات المشهورة ، التي تمكن الشيء في النفس وتقويه ، وقد نزل القرآن الكريم للناس كافة ، ووقف الناس منه مواقف متباينة ، فمنهم الشاك ، ومنهم المنكر ، ومنهم الخصم الألد ، فجاء القسم في كتاب الله ، لإزالة الشكوك ، وإحباط الشبهات ، وإقامة الحجة ، وتوكيد الأخبار ، لتطمئن نفس المخاطب إلى الخبر ، لا سيما في الأمور العظيمة التي أقسم عليها .

لقد أقسم الله بمخلوقاته مع نهيه عن القسم بغيره ، للإشارة إلى أن هذه المخلوقات ، ما هي إلا آيات يستنير بها أولوا الألباب في مناهج الاستدلال على وجود الصانع الحكيم ، ولتصحيح العقائد الباطلة ، فالقسم بالنجم إذا هوى وأمثال ذلك ، فيه رد على من اعتقدوا ألوهية الكواكب ، وللفت الأنظار إلى الكون وما يحويه من حقائق وأسرار ، ونظام بديع محكم ، ولتقرير أن الكتاب الذي جاء به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - منزل من عند الله ، وأن الله تكفل بحفظه من التبديل ، والتحريف ، والنقص ، والزيادة ، وأنه كتاب هداية ، ينير البصائر والأبصار ، لتهدي إلى أقوم طريق .

أسلوب القسم الظاهر في القرآن الكريم بلاغته وأغراضه

تمهيد:

أسلوب القسم في اللغة ، طريق من طرق
توكيد الكلام ، وإبراز معانيه ومقاصده على النحو الذي
يريده المتكلم ، إذ يؤتى به لدفع إنكار المنكرين ، أو
إزالة شك الشاكين . والقسم من المؤكدات المشهورة
التي تمكن الشيء في النفس وتقويه ، ومعلوم أن
القرآن الكريم نزل بلغة العرب ، وعلى أسلوب كلامهم
، ومناحي خطابهم ، وكان من عادتهم أنهم إذا قصدوا
توكيد الأخبار وتقريرها ، جاءوا بالقسم ، وعلى هذا
جاءت في القرآن الكريم أقسام متنوعة ، في مواضع
شتى ، لتوكيد ما يحتاج إلى التوكيد .

والأقسام التي جاء بها القرآن الكريم على ضربين :
الضرب الأول : - ما ورد على طريق الحكاية ، في
ضمن ما قصه القرآن من قصص المخلوقين ، كقوله
تعالى حكاية لقول إبراهيم - عليه السلام - لقومه : - (
تالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين)¹ وكقوله
سبحانه مخبرا عما كان يقوله كفار مكة ، قبل بعثة
المصطفى - عليه الصلاة والسلام - (وأقسموا بالله
جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى
الأمم)² .

وهذا الضرب من القسم كثير في القرآن ، وليس من
غرضي أن أخوض فيه في هذا البحث .
الضرب الثاني : ما أقسم الله تعالى به ، وهذا على
نوعين :

النوع الأول : القسم المضمّر ، وهو القسم المحذوف
، المدلول عليه بجوابه المقرون باللام ،
كقوله تعالى : (لتبلون في أموالكم ولتسمعن من
الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى

¹ - سورة الأنبياء : آية / 57.

² - سورة فاطر : آية / 42.

كثيرا)³ تقديره : والله لتبلون ولتسمعن ، بدلالة الجواب المقرون باللام .
أو المدلول عليه بالمعنى والسياق ، كقوله تعالى :
(وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا)⁴ ،
أي : والله ما من كافر إلا وارد النار ، بدلالة المعنى والسياق ، لأن هذه الآية جاءت بعد آيات مؤكدات بالقسم الملفوظ ، وهو قوله تعالى : (فوربك لنحشرنهم والشیاطین ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا . ثم

لننزعن من كل شعبة أيهم أشد على الرحمن عتيا . ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا)⁵ فدل القسم الملفوظ على القسم الملحوظ ، وهذا النوع من القسم كثير في القرآن كذلك ، وهو خارج عن نطاق هذا البحث .
النوع الثاني : القسم الظاهر ، وهو الملفوظ ، وهو ما سيكون عليه مدار هذا البحث .
وقد اشتمل هذا البحث على تمهيد ، وسبعة مباحث ، وخاتمة :
بينت في المبحث الأول : الأصل الإشتقاقي لألفاظ القسم .
وبينت في المبحث الثاني : أركان القسم .
وفي المبحث الثالث : حققت القول في المقسم به المبدوء بأداة النفي .
وفي المبحث الرابع : بينت أنواع القسم الظاهر في القرآن الكريم ، وهو نوعان :
النوع الأول : إقسامه تعالى بذاته وصفاته .
النوع الثاني : إقسامه تعالى بمخلوقاته .

³ - سورة آل عمران : آية / 186 .

⁴ - سورة مريم : آية / 71

⁵ - سورة مريم : الآيات : 68 ، 69 ، 70 .

وفي المبحث الخامس : وضحت أغراض القسم
القرآني ، وأهدافه .
وفي المبحث السادس : بينت الأمور المقسم عليها .
وجعلت المبحث السابع : لبيان بلاغة القسم القرآني .
وفي الخاتمة : استعرضت أهم النتائج .
والله أسأل أن اكون قد وفقت في العرض لهذا
الموضوع ، والحمد لله في الأولى والآخرة .

المبحث الأول :
الأصل الاشتقاقي لألفاظ القسم
مادة قسم (ق ، س ، م)⁶ : لها معنيان رئيسان هما :

أ - التجزئة والتفريق : وهو - القسم - بسكون السين ،
وجمعه أقسام ، وترجع إليه مشتقات عديدة منها :
قسم الشيء يقسه قسماً : بمعنى : جزأه وفرقه ،
ويكون بمعنى : قدر ونظر ، كقولك : هو يقسم أمره ،
أي : يقدره ، ويدبره ، وينظر كيف يعمل فيه ، قال
لبيد :

فقولا له إن كان يقسم أمره ألما يعظك
الدهر أمك هابل⁷

وقسمه - بالتضعيف - : للتكثير ، أي جزأه ، ومنه قوله
تعالى : - (فالمقسمات أمرا)⁸
وقاسم فلان فلانا أي : أخذ كل منهما قسمه .
واققسم القوم الشيء بينهم ، أي : أخذ كل واحد منهم

⁶ - انظر مادة (قسم) في لسان العرب لابن منظور ، والقاموس
المحيط : للفيروزآبادي ط 2.

⁷ - ديوان لبيد بن ربيعة العامري ، ص 131 . وقوله : أمك هابل : دعاء
عليه كقوله : تكلتك أمك ، انظر : ابن منظور : لسان العرب : ج 15 /
ص 20 .

⁸ - سورة الذاريات : آية / 4 .

نصيبه منه . إلى غير ذلك من المشتقات التي ذكرتها كتب اللغة .

ب : - الحلف واليمين :

وهو القسم - بفتح القاف والسين - وجمعه أقسام ، مثل : سبب وأسباب ، ويستعمل منه الأفعال التالية

- 1 - أقسم بالله إقساماً أي : حلف بالله حلفاً ..
- 2- قاسمه : أقسم له ، أو شاركه في القسم . ومنه قوله تعالى : - (وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين)⁹

3- اقتسم : - يقال : اقتسموا : تحالفوا ، ومنه قوله تعالى : (كما أنزلنا على المقتسمين)¹⁰ ، وهم الذين تقاسموا وتحالفوا على الكيد للرسول - صلى الله عليه وسلم - ، وقيل : هم الذين جعلوا القرآن عضين ، آمنوا ببعضه ، وكفروا ببعضه الآخر .¹¹

- 4 - تقاسم : يقال : تقاسم القوم ، أي : تحالفوا ، ومنه قوله تعالى - (قالوا تقاسموا بالله)¹² ، فهي بمعنى التحالف ، أو طلب بعضهم القسم من بعض .
- 5- استقسمه بالله : طلب منه أن يقسم به .
- 6- القسامة : - ومن معانيها : اليمين ، والجماعة يقسمون على حقهم ويأخذونه ، يقول الراغب : (إن القسم بمعنى اليمين ، أصله من القسامة ، وهي أيمان تقسم على أولياء القتيل إذا ادعوا على رجل أنه قتل صاحبهم ، ومعهم دليل دون البينة ، فيحلفون خمسين يمينا تقسم عليهم ، ثم صار اسم لكل حلف ، فكأنه (أي : القسم) كان في الأصل تقسيم أيمان ، ثم صار يستعمل في نفس الحلف والأيمان¹³

⁹ - سورة الأعراف : آية / 21.

¹⁰ - سورة الحجر : آية / 90.

¹¹ - انظر أقوال المفسرين في الآية في تفسير : شهاب الدين محمود الألوسي : روح المعاني ، ج 14 / ص 80-84 .

¹² - سورة النمل : آية / 51 .

¹³ - الراغب الأصفهاني : مفردات ألفاظ القرآن ، ص 670 . وانظر د. أبو اليقظان عطية الجبوري : اليمين والآثار المترتبة عليه ، ص 192-193 .

والعلاقة بين هذين المعنيين الرئيسيين للقسم وثيقة الصلة ، قوية الرباط ، فما جعل القسم إلا للتفريق بين الحق والباطل ، وما التجئ إليه إلا لتحديد الأنصاء ، وتوزيع الحظوظ ، والفصل بين الخصومات .¹⁴

2 : - مادة (ي ، م ، ن) :¹⁵

زيادة ياء قبل الحرف الأخير : يمين على وزن فعيل ، لها عدة معان ، منها : يمين الإنسان ، والقوة ، والقدرة ، والمنزلة ، والدين . ومن معانيها : الحلف والقسم ، وهو المعنى الذي يهمننا بالدرجة الأولى .

واليمين مأخوذ من أن المتحالفين ، والمتعاهدين ، قد يضع كل منهما يمينه في يمين الآخر ، فصار الحلف يسمى يمينا ، قال تعالى : (ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم ..)¹⁶

قال في مختار الصحاح : (واليمين : القسم ، والجمع : أيمن ، وأيمان ، وقيل : إنما سميت بذلك ، لأنهم كانوا إذا تحالفوا ، ضرب كل امرئ منهم يمينه على يمين صاحبه)¹⁷

وقال أبو اسحق ابراهيم بن عبد الله النجيري : - (وأصل اليمين أنهم كانوا إذا تحالفوا وتعاهدوا تصافقوا بأيمانهم ، ولذلك قيل : أعطاه صفقة يمينه على هذا الأمر ، ثم سمو الحلف يمينا على هذا المعنى . وأنشوا اليمين على تأنيث اليد ، فقالوا : حلف يمينا برة ويمينا فاجرة)¹⁸

¹⁴ - الفيروز آبادي : القاموس المحيط ، ج 4 / ص 166 . و علي أبو القاسم عون : أسلوب القسم واجتماعه مع الشرط ، ص 31-34 ، (بتصرف) . و د . سمير عبد العزيز شيلوة : الكشف والبيان في علوم القرآن ، ص 281 وما بعدها .

¹⁵ - انظر مادة (يمن) في الصحاح ، والقاموس المحيط ، ولسان العرب ، والتعريفات : للجرجاني ، ص 28 .

¹⁶ - سورة المائدة : جزء من الآية / 89 .

¹⁷ - محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي : مختار الصحاح : ص 745 .

¹⁸ - أبو اسحق ابراهيم بن عبد الله النجيري ، أيمان العرب في الجاهلية ، ص 34 .

3 :- مادة (ح ، ل ، ف) ¹⁹ :-

لا تخرج هذه المادة عن معنيين رئيسيين هما : القسم ، والعهد . والخلف والخلف - بفتح الحاء وكسرهما - لغتان في القسم . فالخلف - بكسر الحاء - : العهد يكون بين القوم ، وقد حالفه : أي عاهده . وتحالف القوم : تعاهدوا ، ويكون بمعنى أخى ، وعليه ما جاء حديث أنس : (حالف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بين المهاجرين والأنصار في دارنا) ²⁰ أي : أخى بينهم .

والحلف - بفتح الحاء - : اليمين ، قال تعالى : (ولا تطع كل حلاف مهين) ²¹ ، وقال الرسول - صلى الله عليه وسلم - : (من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليكفر ، وليأت الذي هو خير ..) ²² وأصلها : (أنهم كانوا إذا تحالفوا وتعاقدوا تصافقوا بأيمانهم ، ولذلك قيل : أعطاه صفقة يمينه على هذا الأمر ، ثم سموا الحلف يمينا على هذا المعنى) ²³ . (ومشتقات هذه المادة لا تكاد تخرج عن معنى القسم واليمين ، وإن خرجت فإلى ما يترتب عليه من مخالفة ومعاودة والتزام ، فهي أصل في القسم ، تفرعت عنه معان متصلة به) ²⁴ . ومع أن كتب المعاجم ترى أن (الحلف والقسم) لفظان مترادفان يؤديان معنى واحدا من غير فرق أو تمييز بينهما ، وتفسر أحدهما بالآخر ، ولكن حين نستقرئ استعمال الكلمتين ، وأصل اشتقاقهما

¹⁹ - ابن منظور : لسان العرب ، والفيروز آبادي : القاموس المحيط - (مادة : حلف) .

²⁰ - الإمام عبد الله بن الزبير الحميدي : المسند ، ج 2 / ص 507 ، حديث رقم (1205) .

²¹ - سورة القلم : آية / 10 .

²² - أخرجه الإمام مسلم في صحيحه : ج 2 / ص 23 ، كتاب الأيمان ، من حديث أبي هريرة .

²³ - إبراهيم بن عبد الله النجيري : أيمان العرب في الجاهلية (مرجع سابق) ص 34 .

²⁴ - علي أبو القاسم عون : أسلوب القسم واجتماعه مع الشرط (مرجع سابق) ص 36-37 .

لنتعرف على الفرق بينهما ، نجد أن العرب يقولون : (حلفة فاجر ، وأحلوقة كاذبة) ²⁵ ، ولم يرد مثل هذا مع القسم .

فالحلف يدور حول الاحتمال والشك والتردد ، وبهذا يكون الحالف غالبا معرضا للحنث كثيرا ، لأنه حلف على الظن ، وليس عن يقين .

وحين نستقرئ البيان القرآني في استعماله لمادة (ح. ل. ف) نجدها قد دارت في بيانه الكريم في ثلاثة عشر موضعا ²⁶ ، كلها جاءت بغير استثناء في الحنث باليمين ، وفي آيات مدنية ، وخصوصا في سورة التوبة ، عدا آية واحدة مكية ، هي قوله تعالى في سورة القلم : (ولا تطع كل حلاف مهين) ²⁷ ، ثم إن إسناد الفعل غالبا جاء في المنافقين . وحين أسند الفعل إلى المؤمنين في قوله تعالى : - (ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم) ²⁸ كان ذلك لبيان كفارة الحلف عند الحنث . وباستعراض آيات الحلف المسندة للمنافقين ، والتي كشفت حقيقتهم وفضحت زيفهم ، نرى أن اليمين فيها كانت معقودة أصلا وابتداء على خلاف الحقيقة والواقع في أغلب الآيات ، وهم يعلمون ذلك ، وأن الأمر كذب .

قال تعالى : (ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون) ²⁹ . فالحلف يدور في العربية على احتمال الحنث غالبا ، لأنه مبني على الظن ، وفي البيان القرآني يتضح بجلاء أن اليمين في الحلف معقودة غالبا على الحنث أصلا ، حيث يحلف المنافقون على خلاف الحقيقة ، التماسا للعدر ، دون مبرة في الحلف ، أو صدق في اليمين .

²⁵ - جار الله الزمخشري : أساس البلاغة ، كتاب الشعب ، ص 192 .

²⁶ - انظر سورة المائدة / 89 ، والنساء / 62 ، والتوبة / 42 ، 56 ، 62 ، 74 ، 95 ، 96 ، 107 ، والمجادلة / 14 ، 18 ، والقلم / 10 .

²⁷ - سورة القلم / آية 10 .

²⁸ - سورة المائدة : آية / 89 .

²⁹ - سورة المجادلة : آية / 14 .

أما القسم : فتفسره المعاجم بالحلف دون أن تذكر
فرقا بينهما ، إلا أننا نجد صاحب القاموس يقول :
(والقسم : العطاء والرأي .. وأن يقع في قلبك
الشيء فتظنه ، ثم يقوى ذلك الظن فيصير حقيقة)
³⁰ . فكأن القسم في بعض اشتقاقاته اللغوية أقوى
في الظن ، وأقرب إلى الحق ، وأبعد عن الاحتمال
والشك ، كما هي الحال في الحلف . فالقسم إذا
يكون على الشيء الواضح ، والحق البين ، والأيمان
الصادقة ، ولهذا جاء القسم في القرآن بالإيمان
الصادقة ، وجاء موصوفا بالعظمة في قوله تعالى : -
وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) ³¹ .
وباستقراء البيان القرآني في استعمال القسم ،
يدلنا على أنه يعتبر بحال المقسم عند عقد اليمين ،
فيخص القسم بمن كان صادقا عند عقده لليمين ،
حتى ولو خالف ذلك الحق ، وجانب الصدق في واقع
الأمر ، وإنما كان ذلك هو اعتقاده الجازم ، ونظرته
المخلصة في نظر نفسه ، أو على الأقل إيهام
المقسم له بذلك . ومن هنا يمكن أن نفهم إشارة
القرآن الكريم المتكررة إلى الجهد المبذول عند عقد
اليمين من قبل بعض الكفار ، والمشركين ، مما يوحى
بصدقهم وإخلاصهم في اعتقادهم ، وإن لم يكن هو
الحق . فقد ذكر الله سبحانه وتعالى أقسامهم بالله
جهد أيمانهم في خمسة مواضع ، ³² ليوحى
اجتهادهم غاية الجهد في هذه الأيمان بصدقهم فيها ،
وإن تبين فيما بعد أن الأمر بخلاف ذلك . ومن هنا نرى
أن القسم يرد عاما ، من الله سبحانه ، وعلى لسان
المسلمين ، والمنافقين ، والكفار ، ويكون في آيات
مكية ومدنية ، وغالبا ما يكون صادقا بارا ، وإن لم يكن
كذلك في واقع الأمر ، فعلى الأقل في نظر المقسم

³⁰ - الفيروزآبادي : القاموس المحيط ، ج 4 / ص 164 .

³¹ - سورة الواقعة : آية / 76 .

³² - انظر الآيات : في سورة المائدة : آية / 53 ، وسورة الأنعام : آية /
109 ، وسورة النحل : آية / 38 ، وسورة النور : آية / 53 ، وسورة
فاطر : آية / 42 .

، وحسب اعتقاده عند عقد اليمين . تقول بنت الشاطئ في تفسير سورة البلد : [فقد يبدو من السهل أن نفسر (أقسم) بلفظ (أحلف) ، وليس في استعمال العرب لهما ما يمنع من تفسير أحدهما بالآخر ، لكن استقرار الكلمتين في القرآن يمنع هذا الترادف إلى أن تقول : وأمام هذا الاستعمال القرآني ، لا يهون أن نفسر القسم بالحلف ، وصنيع القرآن فيهما يلفت إلى فرق دقيق بين اللفظين المقول بترادفهما ، فرق يؤيده فقه العربية ، باختلاف مادتي اللفظين يؤذن باختلاف مدلول كل منهما ، وبين حلف وحنث من القرب ، ما ليس بين حلف وقسم ، مما يبعد أن يكونا سواء) [³³ . وهذا فرق كبير واضح ، يكفي لنفي ترادف الكلمتين ³⁴ .

³³ - بنت الشاطئ (عائشة عبد الرحمن) : التفسير البياني للقرآن الكريم ، ط 7 ، ج 1 / ص 166-168 .

³⁴ - محمد بن عبد الرحمن بن صالح الشايع : الفروق اللغوية ، ص 238-243 . ومحمود سليم : خصوصية المعنى لألفاظ القرآن الكريم ، ص 115-120 .

المبحث الثاني :

أركان القسم :

للقسم أركان أربعة :-

الركن الأول : - المَقْسِم : وهو إما الله ، وإما العباد .
أما القسم من الله : - فقد قيل : ما معنى القسم منه تعالى ؟ فإنه إن كان لأجل المؤمن ، فالمؤمن مصدق بمجرد الإخبار من غير قسم . وإن كان لأجل الكافر ، فلا يفيد .³⁵

والجواب : إن القرآن نزل بلغة العرب ، ومن عاداتها القسم إن أرادت أن تؤكد أمراً ،
كما أن الحكم يفصل باثنين : إما بالشهادة ، وإما بالقسم ، فإذا اجتمعت البينة وهي : الشهادة ، مع اليمين ، على دعوى ، اكتسبت مزيد ثبوت وتقرير ، فذكر الله تعالى في كتابه النوعين ، حتى لا يبقى لهم حجة ، فقال : (شهد الله أنه لا إله إلا هو .. الآية)³⁶
وقال : (ويستنبئونك أحق هو ، قل إي وربي إنه لحق ..)³⁷

ففي الآية الأولى : فصل الحكم وقرره بالشهادة .
وفي الآية الثانية : قرره وأكده بالقسم .³⁸
وعن بعض الأعراب أنه لما سمع قوله تعالى : (وفي السماء رزقكم وما توعدون . فو رب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون)³⁹ صرخ وقال : -
من ذا الذي أغضب الجليل حتى ألجأه لليمين .⁴⁰
فالقسم ضرب من البيان ألفه العرب ، ليوثقوا به أنباءهم ، وتبين أنه كثيراً ما يجيء للإستشهاد والإستدلال على صدق المقال ، فهو إذن نوع من

³⁵ - انظر : الزركشي : البرهان ، ج 3 / ص 41.

³⁶ - سورة آل عمران : آية 18/

³⁷ - سورة يونس : آية 53/.

³⁸ - د. سمير عبد العزيز شيلوة : الكشف والبيان (مرجع سابق) ص 289-290 .

³⁹ - سورة الذاريات : الآيتان : 22 ، 23 .

⁴⁰ - شهاب الدين محمود الألوسي : روح المعاني ، ج 27 ، ص 10-11 .

الدليل الواقعي المحسوس ، الذي يستميل المشاعر والوجدان ، ويشير الإنتباه والتفكير .

الركن الثاني : المَقْسَم به : - ولمجيئه في القرآن الكريم أغراض :

الأول : - أنه قد يكون شيئاً علوياً بعيداً عنا يثير الرهبة والعظمة والجلال ، ويدعونا ذكره والقسم به ، إلى أن يثير لدينا الفضول العلمي ، وحب الاستطلاع ، فأخذ في توجيه أنظارنا إليه بالبحث والدرس والتحليل ، ومحاولة تسخيرهِ لمنافعنا ، وذلك كالسمااء ، وما فيها من شمس ، وقمر ، ونجوم ، ومظاهر كونية كثيرة ، فالقسم بهذه الكائنات العلوية ، يدفع الناس إلى البحث والتنقيب ، ونصوص القرآن الدالة على النظر والبحث كثيرة ، منها قوله تعالى : - (قل انظروا ماذا في السماوات والأرض)⁴¹ ، وقوله تعالى : (أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض ، وما خلق الله من شيء)⁴² . وقد أثبت الواقع أنه كلما تعمق الباحثون في دراسة هذه الظواهر التي أقسم الله بها ، وجدوا فيها من العظمة والجلال ، والقدرة الإلهية ، ما تخر له النفوس ساجدة خاشعة ، قائلة : (ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقنا عذاب النار)⁴³ .

الثاني : - إن المقسم به قد يكون شيئاً أرضياً مما يحيط بالإنسان ويتعايش به ومعه ، ويقسم الله تعالى به لما فيه من منافع وفوائد ، كالتين ، والزيتون ، والبحر المسجور ، والأرض وما طحاها

الثالث : - أن يكون المقسم به شيئاً ذاتياً للإنسان ، وذلك كالنفس البشرية التي أقسم الله تعالى بها في قوله : (ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها)⁴⁴ ، وقوله تعالى : (ولا أقسم

41 - سورة يونس : آية /101.

42 - سورة الأعراف : آية /185.

43 - سورة آل عمران : آية /191.

44 - سورة الشمس : آية /7.

بالنفس اللوامة)⁴⁵ . ولا شك أن القسم بهذه الأشياء يفتح للباحثين مجالاً كبيراً في المباحث الفكرية ، والنفسية ، والاجتماعية⁴⁶ .

الركن الثالث : جواب القسم أو المقسم عليه : -
الغالب في المقسم عليه أن يكون في الكلام ، لأنه المقصود بالتحقيق ، وقد يحذف كما يحذف جواب (لو) ، إما : للعلم به ، أو لتذهب النفس فيه كل مذهب . كما في مثل قوله تعالى : (كلا لو تعلمون علم اليقين)⁴⁷ ، فجواب لو محذوف ، تقديره : لو تعلمون علم اليقين عاقبة التفاخر ما اشتغلتم به . وهذه عادة العرب في كلامهم إذا رأوا أموراً عجيبةً ، وأرادوا أن يخبروا بها الغائب عنها .

وأكثر ما يحذف جواب القسم : إذا كان في نفس المقسم به دلالة على المقسم عليه ، فإن المقصود يحصل بذكره (أي المقسم به) ، فيكون حذف المقسم عليه أبلغ وأوجز ، كما في قوله تعالى : (ص . والقرآن ذي الذكر)⁴⁸ ، فإن في المقسم به من تعظيم القرآن ، ووصفه بأنه ذو الشرف ، والقدر ، ما يدل على المقسم عليه ، وهو كونه حقاً من عند الله غير مفترى ، وتقدير الجواب : إن الفرقان لحق . وهذا يطرد في كل ما شابه ذلك ، كقوله تعالى : (ق والقرآن المجيد)⁴⁹ ،

وتقدير الجواب : ما آمن كفار مكة برسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

الركن الرابع : أدوات القسم :
للقسم أدوات منها : (الباء ، والواو ، والتاء ، واللام ، ومن) ، قال سيبويه : (وللقسم والمقسم به أدوات

45 - - سورة الليل : آية /3.

46 - انظر : د. سمير عبد العزيز شيلوة : الكشف والبيان ، ص 293 .
ود. عبد ربه فرحات : تفسير سورة النجم ، دراسة تحليلية ، موضوعية ، ص 43-44.

47 - سورة التكاثر : آية /5.

48 - سورة ص : آية /1.

49 - سورة ق : آية /1.

- في حروف الجر ، وأكثرها الواو ، ثم الباء ، يدخلان على كل محلوف به ، .. الخ) .⁵⁰
- والذي يعنينا من هذه الأدوات هي الحروف الثلاثة الأولى ، إذ لم ترد (اللام) ، أو (من) ، للقسم في القرآن الكريم .⁵¹
- أولها : الباء : وهي الأصل في أدوات القسم ، وهي حرف جريأتي لأربعة عشر معنى ، ذكر معانيها ابن هشام ، وقال : (الثاني عشر : القسم ، وهو - أي حرف الباء - أصل أحرفه)⁵²
- ومما يؤيد أن الباء أصل حروف القسم :
- 1- جواز إثبات فعل القسم وفاعله معها ، كقوله تعالى : (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت .. الآية)⁵³ أو حذفهما ، كما في قوله تعالى : (قال فيما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم)⁵⁴ .
 - 2- ودخولها على المظهر والمضمر ، ولا يدخل من حروف القسم غيرها على المضمر ، ومن شواهد دخولها على الاسم الظاهر ، قوله تعالى : (قالوا تقاسموا بالله لتبيتنه وأهله .. الآية)⁵⁵ . أما دخولها على المضمر فلا دليل له في القرآن الكريم ، وهو كقولك : (أقسم به إني لصادق) .
 - 3- تستعمل في القسم الاستعطافي : كقول عبد الله بن قيس الرقيات :

⁵⁰ - سيبويه : الكتاب ، تحقيق : عبد السلام هارون ، ج 3 / ص 496 وما بعدها .

⁵¹ - انظر : ابن يعيش : شرح المفصل : ج 8 / ص 33-34 ، وج 9 / ص 99-101 .

⁵² - انظر معاني الباء في : ابن هشام : المغني ، ص 143 ، وانظر المرجع السابق : ص 137-151 .

⁵³ - سورة النحل : آية / 38 .

⁵⁴ - سورة الأعراف : آية / 15 .

⁵⁵ - سورة النمل : آية / 51 .

رقي بعمركم لا تهجرينا
ثم امطلينا.⁵⁶ ومنيئا المنى

فاستعمل الباء في الاستعطاف في (بعمركم
لا تهجرينا) .

ثانيها : الواو : وتأتي لعدة معان ، قال ابن هشام :
(انتهى مجموع ما ذكر من أقسامها إلى خمسة عشر ،
إلى أن يقول : السادس والسابع : واوان ينجر ما
بعدهما ، إحداهما : واو القسم ، ولا تدخل إلا على
مظهر ، ولا تتعلق إلا بمحذوف ، نحو : (والقرآن
الحكيم)⁵⁷ ، فإن تلتها واو أخرى ، نحو : (والتين
والزيتون)⁵⁸ فالتالية هي واو العطف ..)⁵⁹

ثالثها : التاء ، قال ابن هشام : (التاء المفردة :
محركة في أوائل الأسماء ، ومحركة في أواخرها ،
ومحركة في أواخر الأفعال ، ومسكنة في أواخرها .
فالمحركة في أوائل الأسماء : حرف جر معناه القسم
(...)⁶⁰

والتاء تختص بلفظ الجلالة ، وذلك لكثرة الحلف به ،
مثل قوله تعالى : (تالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا
مدبرين)⁶¹ قال الزمخشري : (التاء فيها زيادة معنى ،
وهو : التعجب ، كأنه تعجب من تسهل الكيد على يده ،
وتأتيه ، لأن ذلك كان أمرا مقنوطا منه لصعوبته ،
وتعذره)⁶²

⁵⁶ - عبد الله بن قيس الرقيات : ديوانه ، ص 137 .

⁵⁷ - سورة يس : آية / 2 .

⁵⁸ - سورة التين : آية / 1 .

⁵⁹ - ابن هشام : المغني : ص 473 ، وانظر المرجع السابق : 463-
482 .

⁶⁰ - ابن هشام : المغني ، ص 157 .

⁶¹ - سورة الأنبياء : آية / 157 .

⁶² - الزمخشري : تفسير الكشاف ، ج 2 / ص 576 .

المبحث الثالث

تحقيق القول في المقسم به المبدوء بأداة

النفى :

ورد المقسم به مسبقا بأداة النفي (لا) في ثمانية مواضع من القرآن الكريم ، وهي : -
أ - مقسم به تقدمته أداة النفي مقترنة بالفاء ، وذلك في ستة مواضع من القرآن الكريم ، وكلها في ثانيا السور وهي :

- 1 - قوله تعالى : - (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم)⁶³.
- 2 - قوله تعالى : - (فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون)⁶⁴.
- 3 - قوله تعالى : - (فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون)⁶⁵.
- 4 - قوله تعالى : - (فلا أقسم بمواقع النجوم)⁶⁶.
- 5 - قوله تعالى : - (فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس)⁶⁷.
- 6 - قوله تعالى : - (فلا أقسم بالشفق)⁶⁸.

ب - مقسم به مسبق بأداة النفي غير مقترنة بالفاء ، وذلك في موضعين : -

- 1 - قوله تعالى : - (لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة)⁶⁹.

- 2 - قوله تعالى : - (لا أقسم بهذا البلد)⁷⁰.

وقد تناول المفسرون هذا النوع من المقسم به بالحديث ، ويمكن أن نجل حديثهم عنه فيما يلي :

⁶³ - سورة النساء : آية / 65.

⁶⁴ - سورة الحاقة : الآيتان / 38 ، 39

⁶⁵ - سورة المعارج : آية / 40.

⁶⁶ - سورة الواقعة : آية / 75.

⁶⁷ - سورة التكويد : الآيتان / 15 ، 16.

⁶⁸ - سورة الانشقاق : آية / 16.

⁶⁹ - سورة القيامة : الآيتان / 1 ، 2 .

⁷⁰ - سورة البلد : آية / 1.

الرأي الأول : وحاصله :

أ : - أن (لا) لنفي القسم .
فكان الله تعالى يريد أن يقول : لا أقسم بهذه الأشياء على إثبات هذا المطلوب ، فهو أعظم وأجل من أن يقسم عليه بهذه الأشياء . ويكون الغرض من هذا الكلام تعظيم المقسم عليه ، وتفخيم شأنه ، أو : يكون الغرض إثبات أن المقسم عليه ، أظهر وأجل من أن يقسم عليه بمثل هذه الأشياء ، فإن إثباته أظهر وأجل وأقوى من أن يحاول إثباته بمثل هذا القسم ، وبه قال الفخر الرازي .⁷¹

ب - أن (لا) هذه إذا وقعت خلال الكلام ، كقوله تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم)⁷² ، فهي صلة تزداد لتوكيد القسم ، مثلها في قوله تعالى : (لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله)⁷³ لتأكيد وجوب العلم . وإذا وقعت ابتداء كما في سورة القيامة ، وسورة البلد ، فهي للنفي ، لأن الصلة لا تكون في أول الكلام . ووجهه : - أن إنشاء القسم يتضمن الإخبار عن تعظيم المقسم به ، فهو نفي لذلك الخبر الضمني على سبيل الكناية . والمراد : أنه لا يعظم بالقسم ، لأنه في نفسه عظيم ، أقسم به أولا ، ويطرقى من هذا التعظيم إلى تأكيد المقسم عليه ، إذ المبالغة في تعظيم المقسم به ، تتضمن المبالغة في تعظيم المقسم عليه . وبه قال الزمخشري .⁷⁴

ج - أن (لا) لنفي ما ينبئ عنه القسم من إعظام المقسم به وتفخيمه . فإن معنى لا أقسم بكذا : لا أعظمه بإقسامي حق إعظامه ، فإنه حقيق بأكثر من ذلك . وهذا الرأي يدور على أن (لا) للنفي ، وهذا الأسلوب يتضمن التعظيم . لكن : هل التعظيم منصب

⁷¹ - الفخر الرازي : التفسير الكبير ، الطبعة الثالثة ، ج 29 / ص 215 .

⁷² - سورة النساء : آية / 65 .

⁷³ - سورة الحديد : آية / 29 .

⁷⁴ - الزمخشري : الكشاف : ج 1 / ص 538 .

على المقسم به ، كما ذهب إليه أبو السعود ⁷⁵ ، على معنى : لا أعظمه بإقسامي به حق إعظامه ، فإنه حقيق بأكثر من ذلك . أم أن التعظيم منصب على المقسم عليه ، على معنى : لا أقسم بهذه الأشياء على إثبات المطلوب ، فإنه أعظم من أن يقسم عليه بهذه الأشياء ، وهذا ما ذهب إليه الفخر الرازي . ⁷⁶ أم هو منصب على المقسم به ، والمقسم عليه ، كما ذهب إلى ذلك الزمخشري ..؟ إذ المبالغة في تعظيم المقسم به تتضمن المبالغة في تعظيم المقسم عليه

77

ويرد هذا الرأي قوله تعالى في سورة الواقعة : - (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) ⁷⁸ . فهذا دليل على أن هنا قسما مثبتا ، وأن الكلام إثبات قسم ، لا نفي قسم ، وليس بعد بيان الله بيان . ويقاس على هذا بقية المواضع الثمانية ، إذ هي مثلها في اللفظ ، فتكون مثلها في الحكم .

الرأي الثاني :

وحاصله : - أن صيغة (لا أقسم) عبارة من عبارات القسم ، واختلفوا في توجيهها على أقوال : -
أولا : - أن لا صلة ، أي : زائدة ، والمعنى : أقسم .
قال بزيادتها : (ابن خالويه) ⁷⁹ ،
وأجاز ذلك أبو علي الفارسي في قوله (وإن جعلت تأكيدا لم يمتنع) ⁸⁰ .

⁷⁵ - أبو السعود بن محمد العمادي : تفسير أبي السعود (تفسير سورة الواقعة) ، ج 5 / ص 267 .

⁷⁶ - الفخر الرازي : التفسير الكبير ، (مرجع سابق) ج 29 / ص 215 ، (تفسير سورة القيامة)

⁷⁷ - انظر تعليق _ ابن المنير - على تفسير الزمخشري للآية / 65 في سورة النساء ، ج 1 / ص 538-539 . .

⁷⁸ - سورة الواقعة : آية / 76 .

⁷⁹ - ابن خالويه (أبو عبد الله الحسين بن أحمد) : إعراب ثلاثين سورة من القرآن ، ص 87 .

⁸⁰ - أبو علي الفارسي : المسائل المشككة المعروفة بالبغداديات ، ص 571 .

وقال بزيادتها كذلك الزمخشري ، في تفسيره للآية (75) من سورة الواقعة قال : [فلا أقسم ، معناه : فأقسم ، ولا مزيدة مؤكدة ، مثلها في قوله تعالى (لئلا يعلم أهل الكتاب) ⁸¹] ⁸² ، وقال في موضع آخر من الكشف : [إدخال لا النافية على فعل القسم مستفيض في كلامهم ، وأشعارهم قال امرؤ القيس : لا وأبيك ابنة العامري لا يدعي القوم ⁸³ أني أفر

وفائدتها توكيد القسم . ثم قال : (واعترضوا عليه بأنها إنما تزداد في وسط الكلام لا في أوله ، وأجابوا بأن القرآن في حكم سورة واحدة ، متصل بعضه ببعض ، والاعتراض صحيح ، لأنها لم تقع مزيدة إلا في وسط الكلام ، ولكن الجواب غير سديد ، ألا ترى إلى امرئ القيس كيف زادها في مستهل قصيدته ⁸⁴] وقيل : إنها زيدت توطئة وتمهيدا لنفي الجواب ، كما في قوله تعالى : (لا أقسم بيوم القيامة) ⁸⁵ فالمعنى : لا ، أقسم بيوم القيامة ، لا يتركون سدى ⁸⁶ . وما قاله الزمخشري وغيره مردود بأمور منها : 1 - لا : ليست زائدة لتأكيد القسم ، لأن ما يراد توكيده ينبغي أن يكون متأخرا عما هو مؤكد له ، فليس من المقبول أن نجعل (لا) مزيدة لتأكيد معنى القسم الوارد بعدها ، وقد منع (ثعلب) وغيره مجيء لا زائدة للتأكيد في ابتداء القول ، واستقبحه بعض أهل اللغة ،

⁸¹ - سورة الحديد : آية / 58

⁸² - الزمخشري : تفسير الكشف ، ج 4 / ص 58 .

⁸³ - ديوان امرئ القيس ، صنعه : حسن السندوبي ، ص 52 ، والقوم هنا : بنو تميم . أفر : أنهزم . وقد جعل بعض الرواة هذا البيت أول القصيدة . وابنة العامري هي : هر بنت سلامة بن علند .

⁸⁴ - الزمخشري : تفسير الكشف ، (مرجع سابق) ج 4 / ص 189

(تفسير سورة القيامة) . وانظر د. فضل حسن عباس : لطائف المنان ، ص 243 .

⁸⁵ - سورة القيامة : آية / 1 .

⁸⁶ - جمال الدين ابن هشام الأنصاري : مغني اللبيب ، ص 328-329 .

وأنكروه ، لأن حكم التأكيد ينبغي أن يكون بعد المؤكد⁸⁷ . و (لأن زيادة الحرف يدل على إطراحه ، وكونه في أول الكلام يدل على قوة العناية به ، لذا لم يجر أن نجعل -لا- في هذه الآية زيادة)⁸⁸ .

2 - إن قولهم إن -لا- زيدت توطئة وتمهيدا لنفي الجواب ، مردود بقوله تعالى : - (فلا أقسم بمواقع النجوم)⁸⁹ فإن جوابه هو قوله تعالى : (إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون)⁹⁰ . وهو مثبت غير منفي . ومثله قوله تعالى : - (لا أقسم بهذا البلد)⁹¹ فإن جوابه مثبت ، وهو قوله تعالى : - (لقد خلقنا الإنسان في كبد)⁹² .

ثانيا : - إن -لا- نافية لكلام سابق ثم إستأنف القسم :

وتحقيقه في قوله تعالى : (لا أقسم بيوم القيامة)⁹³ . أن - لا - نافية لكلام المشركين المنكرين للبعث ، أي : ليس الأمر كما زعموا ، ثم ابتدا : أقسم بيوم القيامة .

قال القرطبي : (وقال بعضهم : (لا) : رد لكلامهم حيث أنكروا البعث ، فقال : ليس الأمر كما زعمتم . قلت : وهذا قول الفراء ، قال الفراء : وكثير من النحويين يقولون (لا) صلة ، ولا يجوز أن يبدأ بجدد ثم يجعل صلة ، لأن هذا لو كان كذلك لم يعرف خبر فيه جدد من خبر لا جدد فيه ، ولكن القرآن جاء بالرد على الذين أنكروا البعث ، والجنة ، والنار ، فجاء الإقسام بالرد عليهم ، وذلك كقولهم : لا والله لا أفعل ، ف (لا) رد لكلام قد مضى ، وكقولك : لا والله إن القيامة لحق

⁸⁷ - ابن يعيش : شرح المفصل : ج 8 ص 136 . .

⁸⁸ - أمالي ابن الشجري : ج 1 / ص 219 ، 222 .

⁸⁹ - سورة الواقعة : آية / 75 .

⁹⁰ - سورة الواقعة : الآيتان / 77 ، 78 .

⁹¹ - سورة البلد : آية / 1

⁹² - سورة البلد : آية / 4 .

⁹³ - سورة القيامة : آية / 1 .

، كأنك أكذبت قوما أنكروه) .⁹⁴ وهو رأي أبي علي
الفارسي كذلك⁹⁵ .

- ونجيب على هذا القول ، بأنه ضعيف من وجوه : -
- 1- إن هذا الكلام المحذوف الذي قدره لا دليل عليه .
 - 2- قولهم هذا يتنافى مع ما قرره النحويون من أن اسم - لا - وخبرها لا يجوز حذفهما إلا إذا كانا في جواب سؤال ، كما تقول : هل من رجل في الدار ، فيكون الجواب : لا ، أي : لا رجل في الدار⁹⁶ .
 - 3- قرر علماء المعاني في مثل هذا الموضع تعيين العطف بالواو حتى لا يحصل اللبس ، كما يقال : هل شفي فلان من مرضه ؟ فيقال : لا ، وشفاه الله . ولا يصح أن نقول : لا شفاه الله حتى لا يتوهم أنه دعاء عليه لا له . فلو كان الأمر كما يقولون ، لقال سبحانه : لا وأقسم بيوم القيامة⁹⁷ .
 - 4- قال تعالى :- (لا أقسم بيوم القيامة . ولا أقسم بالنفس اللوامة)⁹⁸ فلو كان الأمر كما يقولون من أن (لا) جاءت لنفي كلام سابق ، لم يكن ثمة داع لإعادة حرف النفي مرة أخرى ، في قوله تعالى : - (ولا أقسم بالنفس اللوامة)⁹⁹ .

⁹⁴ - القرطبي : أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري : الجامع لأحكام القرآن ، ج 19 / ص 60 .

⁹⁵ - الفراء : معاني القرآن : ج 3 / ص 207 . وأمالى ابن الشجري ، ج 2 / ص 207 . وقد نقل ابن الشجري هذا الرأي عن أبي علي الفارسي .

⁹⁶ - أبو حيان : البحر المحيط ، ج 8 / ص 213 .

⁹⁷ - ذكر الجاحظ القصة المشهورة عن أبي بكر ، قال : ومروا رجل بأبي بكر - رضي الله تعالى عنه ومعه ثوب ، فقال : أتبيع الثوب ؟ فقال : لا عافاك الله ، فقال أبو بكر : لقد علمتم لو كنتم تعلمون ، قل : لا وعافاك الله . انظر : الجاحظ : البيان والتبيين : ج 1 / ص 279 .

⁹⁸ - سورة القيامة : الآيتان 1 ، 2 .

⁹⁹ - سورة القيامة : آية 2 .

ثالثاً : - إن أصل (لا أقسم) : لأقسم : أشبعت فتحة اللام فظهرت الألف .
 أجاز الفراء¹⁰⁰ دخول لام الإبتداء على فعل القسم المضارع ، مستدلاً بقراءة الحسن¹⁰¹ (لأقسم بيوم القيامة)¹⁰² ، وتابعه ابن جني ، ولكنه قدر حذف مبتدأ بعدها ، قال : - (أي لأنا أقسم بيوم القيامة ، وحذف المبتدأ للعلم به)¹⁰³ ، وخرجها الزمخشري على معنى (فلأنا أقسم) ، اللام لام ابتداء ، دخلت على جملة من مبتدأ وخبر ، وهي : أنا أقسم .
 قال :- (ولا يصح أن تكون اللام لام القسم لأمرين : أحدهما : - إن حقها أن تقرر بها النون المؤكدة ، والإخلال به ضعيف قبيح .
 والثاني : - إن لأفعلن في جواب القسم للاستقبال .
 وفعل القسم يجب أن يكون للحال)¹⁰⁴ .
 وقال العكبري :- (فيها وجهان : -
 أحدهما : - هي لام التوكيد دخلت على الفعل المضارع كقوله تعالى : (وإن ربك ليحكم بينهم)¹⁰⁵ ، وليست لام القسم .
 والثاني : - هي لام القسم ، ولم تصحبها النون اعتماداً على المعنى ، ولأن خبر الله صدق ، فجاز أن يأتي من غير توكيد)¹⁰⁶ . ونقول : صحيح أن خبر الله صدق ، ولكن لم نجد آية واحدة ذكرت فيها لام القسم متصلة بالفعل المضارع ، دون أن تصحبها النون ، وإذا أخذنا بالقول أن خبر الله صدق - وهو

¹⁰⁰ - الفراء : معاني القرآن ، ج 3 / ص 207

¹⁰¹ - ابن جني : المحتسب : ج 1 / ص 341 .

¹⁰² - سورة القيامة : آية / 1 .

¹⁰³ - ابن جني : المحتسب ، ج 2 / ص 341 .

¹⁰⁴ - الزمخشري : الكشاف ، (تفسير سورة الواقعة) ج 4 / ص 58 .

¹⁰⁵ - سورة النحل : آية / 154

¹⁰⁶ - العكبري : أبو البقاء عبد الله بن الحسين : إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن ، على هامش الفتوحات الإلهية . ج 4 / ص 432 .

كذلك - ، واعتمدنا عليه ، فلا داعي للقسم أصلا ، لكنه أقسم لحكمة يعلمها .

ومن خلال العرض الموجز السابق نصل إلى :

1- ليست اللام لام ابتداء ، أشبعت فتحتها فتولدت عنها ألف ، وليست زائدة كذلك .

2- إن القسم المسبوق بالنفي ، هو عبارة من عبارات القسم ، وليست (لا) أداة نفي نافية للقسم كما

ادعى البعض ، إذ أنه مردود بتعيين المقسم به ، كما في قوله تعالى : (فلا أقسم بما تبصرون وما لا

تبصرون) ¹⁰⁷ ، وقوله تعالى : (فلا أقسم

بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم إنه

لقرآن كريم) ¹⁰⁸ فقد صرح بالقسم هنا ، وليس بعد

بيان الله بيان . كما أن تأكيد الأمر عن طريق النفي

مألوف في لغة العرب ، فإنك إذا قلت لصاحبك :

(لا أوصيك بفلان) ، فإنما تريد تأكيد التوصية به ،

وتبالغ في الاهتمام به . فتبلغ بالنفي ما لا تبلغه

بالأسلوب الصريح المباشر ، وكذلك نفي القسم ،

استعمل في القسم من طريق أكد وأبلغ. ¹⁰⁹

المبحث الرابع

أنواع القسم الظاهر في القرآن الكريم :

المطلب الأول : - إقسامه تعالى بذاته وصفاته . وقد

جاء في خمسة مواطن من القرآن : -

الموطن الأول : قوله تعالى في سياق الكلام على

المنافقين : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما

شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت

ويسلموا تسليما .) ¹¹⁰

الموطن الثاني : قوله تعالى : (فوربك لنسألنهم

أجمعين عما كانوا يعملون .) ¹¹¹

¹⁰⁷ - سورة الحاقة : الآيتان / 38 ، 39 .

¹⁰⁸ - سورة الواقعة : الآيات / 75 ، 76 ، 77 .

¹⁰⁹ - انظر : د. سمير شيلوة : الكشف والبيان ، ص 304-316 .

(بتصرف واختصار)

¹¹⁰ - سورة النساء : آية / 65 .

¹¹¹ - سورة الحجر : الآيتان / 92 ، 93 .

الموطن الثالث : قوله تعالى : (فوريك لنحشرنهم
والشياطين .) ¹¹²
الموطن الرابع : قوله تعالى : (فوري السماء
والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون .) ¹¹³
الموطن الخامس : قوله تعالى : (فلا أقسم برب
المشارك والمغرب إنا لقادرون على أن نبدل خيرا
منهم وما نحن بمسبوقين .) ¹¹⁴
وأما قوله تعالى في سورة يونس : (ويستنبئونك أحق
هو قل إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين) ¹¹⁵ ،
وقوله تعالى في سورة التغابن : - (زعم الذين كفروا
أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن) ¹¹⁶ فليس من باب
إقسامه تعالى بذاته ، وإنما هو من باب تعليمه النبي -
صلى الله عليه وسلم - كيفية الجواب ، فهو بالنهاية
من أقسام النبي - صلى الله عليه وسلم - بربه ،
على الطريقة التي دله الله عليها ، وأرشده إليها
المطلب الثاني : - وهو إقسامه تعالى بمخلوقاته ،
وهو كثير في القرآن .
القسم بالمخلوقات في القرآن الكريم :
إذا إستقصينا القسم في القرآن وجدناه تعالى يقسم
على أصول الإيمان التي يجب على الخلق معرفتها ،
فتارة يقسم على أن الله واحد ، وتارة يقسم على
البعث ، وتارة يقسم على حال الإنسان .
يقسم على أن الله واحد ، كقوله تعالى : (والصافات
صفا . فالزاجرات زجرا . فالتاليات ذكرا . إن إلهكم
لواحد) ¹¹⁷ .

¹¹² - سورة مريم : آية / 68 .

¹¹³ - سورة الذاريات : آية / 23 .

¹¹⁴ - سورة المعارج : الآيتان / 40 ، 41 .

¹¹⁵ - سورة يونس : آية / 53 .

¹¹⁶ - سورة التغابن : آية / 7 .

¹¹⁷ - سورة الصافات : الآيات / 1 ، 2 ، 3 ، 4 .

وعلى أن القرآن حق ، كقوله تعالى : (فلا أقسم بمواقع النجوم . وإنه لقسم لو تعلمون عظيم . إنه لقرآن كريم)¹¹⁸ .

وعلى أن الرسول حق ، كقوله تعالى : - (يس)
والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين)¹¹⁹ . وعلى
الجزاء ، كقوله تعالى : (والطور . وكتاب مسطور .
في رق منشور . والبيت المعمور . والسقف المرفوع .
والبحر المسجور . إن عذاب ربك لواقع . ما له من
دافع)¹²⁰ .

وعلى حال الإنسان ، كقوله تعالى : (والليل إذا يغشى . والنهار إذا تجلى . وما خلق الذكر والأنثى . إن سعيكم لشتى)¹²¹ .

وفي هذه الآيات وغيرها ترى المقسم به من مخلوقات الله تعالى ، فبإقسامه أولاً ، وكونه يقسم بالمخلوقات ثانياً ، أثار الشبهات التالية¹²² : -
1 - الجري على عادة الحلف عندنا غير محمود شرعاً ، فالذي يلجأ للقسم متهم في صدقه ، مفتقر إلى تأييد دعواه ، فلماذا أكثر الله من الأقسام في القرآن . ؟
2 - نهى النبي - صلى الله عليه وسلم - عن الحلف بغير الله¹²³ ، ثم إن الحلف بغير الله يقتضي تعظيمه ، والعظمة لله وحده ، واجتناب الحلف مطلوب شرعاً ، فكيف يحلف الله بمخلوقاته ، كالتين والزيتون ؟
3 - القسم القرآني كما قلنا وقع على أمور مهمة جداً ، هي أصول الإيمان ، فما المقصود به ؟ إن كان المقصود تحقيق المحلوف عليه وإثباته في ذهن

¹¹⁸ - سورة الواقعة : الآيات / 75 ، 76 ، 77 .

¹¹⁹ - سورة يس : الآيات / 1 ، 2 ، 3 .

¹²⁰ - سورة الطور : الآيات / 1 ، 2 ، 3 ، 4 ، 5 ، 6 ، 7 ، 8 .

¹²¹ - سورة الليل الآيات / 1 ، 2 ، 3 ، 4 . وانظر ابن قيم الجوزية :

التبيان في أقسام القرآن ، ص 4 - 8 .

¹²² - عبد الحميد الفراهي : إمعان في أقسام القرآن ، ص 4 .

(بتصرف) .

¹²³ - الإمام مسلم : صحيح مسلم : كتاب الإيمان ، ج 11 / ص 104 -

المؤمن ، فالمؤمن مصدق لا يحتاج إلى يمين ، وإن كان المقصود به تحقيقه وإثباته في ذهن الكافر ، فالكافر لا يصدق باليمين ¹²⁴ ، ولا يقنعه إلا الدليل الساطع ، والبرهان القاطع . تلك الشبهات تخطر كلها أو بعضها في بال كثير من الناس .

فإذا سأل أحدهم : كيف يقسم الله بمخلوقاته ؟ كان الجواب : إن الله أراد تشريف تلك المخلوقات ، والتنويه بها وإعلاء شأنها ، والرد على من ذمها ، وهذا ظاهر الصحة في قوله تعالى : (لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون) ¹²⁵ ، إذا قلنا إنه خطاب من الله لنبيه -صلى الله عليه وسلم- ، فقد كان النبي واحداً من العرب ، ظهر فيهم وعليهم ، فلقى منهم إيذاءً واستهزاءً ، ولقي منه عناداً وإصراراً ، وعتوا واستكباراً ، فمن المعقول أن يشرفه الله بأن يقسم بحياته ، أما أن يشرف الخيل العاديات صباحاً بالقسم ، فبعيد ، وأبعد منه أن يشرف بالقسم كلا من الشمس ، والقمر ، والنجوم ، وقد بلغت عندهم من الشرف غاية ، حتى عبدها بعضهم ، وفي تشريفه إياها بالقسم بها ، إغراء لهم بالتمادي في عبادتها ، وهو يقول - سبحانه - (لا تسجدوا للشمس ولا للقمر .) ¹²⁶

أساس تلك الشبهات : -

لعل مما سبب في تسرب هذه الشبهات إلى الأذهان ، ظننا أن الغرض من القسم تقديس المقسم به ، أو تشريفه وتعظيمه ، وساعد على ذلك ، أن معظم ما أقسم الله به من مخلوقاته شريف في ذاته ، كالقرآن ، والشمس ، والقمر ، ولكن القسم في اللغة قد يكون بالخصيس كذلك ، ليؤدي غرضاً مقصوداً ، وسنرى في الأسطر القادمة ، أن في القسم بالمخلوقات ، نوع يباين القسم التقديسي ، ويباين

¹²⁴ - انظر : الزركشي : البرهان في علوم القرآن ، ج 3 / ص 41 .

¹²⁵ - سورة الحجر : آية /72.

¹²⁶ - سورة فصلت : آية /37.

القسم التشريفي ، وجيء به ليؤدي غرضاً جليلاً لا يؤديه غيره .
ولما كان القرآن قد نزل بلغة العرب ، وعلى طريقتهم ، وأسلوبهم ، كان علينا أن نعرف الغرض الأصلي من القسم عندهم ، وأن نتبين خصائصه وأهدافه ، لتتداعى تلك الشبهات .

المبحث الخامس

أغراض القسم القرآني ، وأهدافه :
يقول ابن يعيش : - (الغرض من القسم : توكيد ما يقسم عليه من نفي وإثبات)¹²⁷
وقال ابن القيم : (والمقسم عليه : يراد بالقسم توكيده ، وتحقيقه)¹²⁸
والقرآن نزل بلغة العرب ، ومن عاداتها القسم إذا أرادت أن تؤكد أمراً ، وقلما نجد القسم مستعملاً في اللغات الأخرى وآدابها¹²⁹ .
وكثيراً ما يحتاج المتكلم إلى تأكيد خبر يسوقه ، أو توثيق وعد يصدر منه ، وبخاصة في الأمور المهمة كالمحالفات ، والمعاهدات ، وكان للتأكيد عند العرب صيغ مختلفة ، وكان القسم أقواها تأكيداً وتحقيقاً ، لأنه يفيد الجزم بصحته ، والقطع بصدقه ، وقد بلغ من شأن القسم عندهم ، أنهم كانوا يحترزون كل الإحتراز من الأيمان الكاذبة ، ويعتقدون أنها شؤم على صاحبها ، تخرب الديار ، وتدعها بلاقع ، لما فيها من الغدر والخيانة ، ومن أجل هذا كانت اليمين عندهم قاطعة في إثبات الحقوق .
فالغرض الأصلي من القسم تأكيد المقسم عليه ، أما تقديس المقسم به ، أو تشريفه ، فغير مقصود أصالة ، وإن أتى تبعاً

¹²⁷ - ابن يعيش : موفق الدين يعيش بن علي: شرح المفصل ، ج 9 / ص 90 .

¹²⁸ - ابن القيم : التبيان في أقسام القرآن ، (مرجع سابق) ص 2 .

¹²⁹ - انظر : د. عبد الجليل عبد الرحيم : لغة القرآن الكريم ، ص 265 .

والقسم أنواع :

- 1- نوع يلزم فيه التقديس .
 - 2- ونوع فيه تشریف وإعزاز للمقسم به .
 - 3 - ونوع ثالث هو المقصود بالبيان ، يكون القسم فيه بالدليل ، أو ما في حكمه ، وهو القسم الاستدلالي .
- القسم التقديسي : - وهو إقسام الإنسان بمعبوده ، فهو عند المسلمين : أن يقسم بالله أو بصفة من صفاته ، فيقول أحدهم : أقسم بالله ، أو بعزته ، أو بجلاله لأفعلن كذا ، وهو أقوى أنواع القسم تأكيداً للمقسم عليه ، وهو القسم الشرعي ، الذي يأثم الإنسان على نقضه بعد تأكيده .
- قالت العلماء : أقسم الله تعالى بالنبي - صلى الله عليه وسلم - ، في قوله (لعمر ك إنهم لفي سكرتهم يعمهون) ¹³⁰ لتعرف الناس عظمته عند الله تعالى ، ومكانته لديه) ¹³¹ هذا إذا كان الله عز وجل هو المقسم ، أما العباد إذا أقسموا ، فالإسلام حرم عليهم القسم بغير الله ، أو صفة من صفاته ، وقد سمع النبي - صلى الله عليه وسلم - رجلاً يحلف بأبيه ، فقال : (إن الله ينهاكم أن تحلفوا بأبائكم ، فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت) ¹³² . وللفقهاء في ذلك آراء وأقوال ليس هذا موضعها . ¹³³
- القسم التشريفي : - يحس الإنسان في نفسه عزة ورفعة ، فيحمله هذا إذا أراد تأكيد كلام أن يقول : ورأسي ، أو وحياتي ، أو لعمر ك ، لأفعلن كذا ، وقد يريد إعزاز المخاطب وإكرامه فيقول : ورأسك ، أو لعمر ك ، فكل هذه الأقسام تفيد التأكيد ، ومع أنها تشعر بتعظيم المقسم به ، إلا إلى أنها لا تصل إلى حد التقديس .

¹³⁰ - سورة الحجر : آية / 72 .

¹³¹ - السيوطي : الاتقات ، ج 2 / ص 170 .

¹³² - الإمام مسلم : صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان ، ج 2 /

ص 20 .

¹³³ - أبو اليقظان عطية الجبوري : اليمين والآثار المترتبة عليه . ص

55-52 .

القسم الإستدلالي :

1- روي أن (هجرسا) حين هم بقتل خاله (جساساً) قاتل أبيه ، قال : - (وفرسي وأذنيه ، ورمحي ونصليه ، وسيفي وغراريه ، لا يترك الرجل قاتل أبيه وهو ينظر إليه) ¹³⁴ ، ثم طعنه فقصى عليه . لم يرد (هجرس) تقديس فرسه ، وأذنيه ورمحه ، ونصليه وسيفه ، وغراريه ، ولا تشریفها ، وإن كانت عظيمة عنده ، عزيزة عليه ، ولكنه أراد أن يقول : لا عذر لي في أن أترك قاتل أبي حيا أنظر إليه ، وأنا تام الأهبة ، قادر على الضرب والطعن والثأر ، أو أراد أن يقول : أنا تام العدة ، قادر على الثأر ، ومن كان كذلك ، لا يسوغ له أن يترك قاتل أبيه حيا وهو ينظر إليه ، فأنا لا يسوغ لي أن أترك قاتل أبي حيا ، وأنا أنظر إليه ، فوضع الدليل في صورة القسم التي تفيد تأكيد المحلوف عليه ، وتلفت السامع إليه ، دون أن تعطي الخصم فرصة الإنكار ، أو الفرار .

2 - قال عروة بن مرة الهذلي : -

وقال أبو أمامة ، البكر
فقلت ومرخة دعوى
كبير .

يستعزئ الشاعر بأبي أمامة على استغاثته بقبيلة بكر ، فقال : هذه دعوى كبيرة ، أي : ما أصغر من يدعوهم لنصره ، فأقسم بشجرة صغيرة لا تؤوي من يلوذ بها ، وضربها مثلاً لأضعف الأشياء ملاذاً ، وإنما قال : (كبير) ، تهكماً ، فهو يريد : فقلت ومرخة دعوى صغير ، على حد قولك للأسود : يا أبيض ، وللجبان : يا أسد . وكقوله تعالى : (ذق إنك أنت العزيز الكريم) ¹³⁵ أي : الدليل اللئيم .

ويتضح هذا المعنى مما قاله أبو جندب الهذلي :

¹³⁴ - عبد الحميد الفراهي : إمعان في أقسام القرآن (مرجع سابق)

ص 35 . وانظر القصة كاملة في الأغاني : لأبي الفرج الأصفهاني ج 5 / ص 61 . ومحمد أحمد جاد المولى : أيام العرب في الجاهلية ، وزملاؤه . ص 142-168 .

¹³⁵ - سورة الدخان : آية / 49 .

وكنـت إذا جار دعا لمضوفة أشمر حتى ينصف
الساق مئزري .
فلا تحسباجاري لدى ظل مرخة ولا تحسبـه فقع
قاع بقرقر .
والمرخة : شجرة ضئيلة الظل ، لا تقي من استظل بها
حر الشمس ، ولذا تقول العرب لمن لجأ إلى ضعيف لا
يحميه : لقد استظل بمرخة .¹³⁶
فالتقديس والتشريف لا يلزمان المقسم به ، بل قد
يكون حقيرا ، أو بغضا ثقيلـا ، وقد يكون القسم
للتذكير بالمقسم به ، والتنبيه إليه ، وقد يكون
للإستدلال بالمقسم به على المقسم عليه ، أو لتشبيه
المقسم عليه بالمقسم به .
وإلى هذا أشار الفخر الرازي - عند تفسير قوله
تعالى : (والذاريات ذروا . فالحاملات وقرأ
فالجاريات يسرا . فالمقسمات أمرا . إنما توعدون
لصادق . وإن الدين لواقع .)¹³⁷ إلى أن الإيمان
الواقعة في القرآن ، وإن وردت في صورة القسم ،
فالمقصود بها الاستدلال بالمقسم به على المقسم
عليه ، وهو هنا صدق الوعد ، والبعث ، والجزاء ، كأنه
قيل : من قدر على هذه الأمور العجبية المقسم بها ،
يقدر على إعادة من أنشأه أولا¹³⁸ .
وأكثر أقسام القرآن إستدلالية ، والأدلة على ذلك
كثيرة ، منها : -
1- إن حملها على الإستدلال هو اللائق بجلال الله
وبجلال كتابه ، لأنه ليس من اللائق ولا من الصواب ،
أن يفهم أي قسم من أقسام الله على أنه تقديس
للمقسم به ، لأن هذا التقديس يجوز على البشر ، ولا

¹³⁶ - عبد الحميد الفراهي : إمعان في أقسام القرآن (مرجع سابق) ص 35 . (بتصرف) . والقاع : المستوي من الأرض . والقرقر :

الأملس الذي لا حجارة فيه . انظر : الرازي : مختار الصحاح ، ص 556 . وابن منظور : لسان العرب ج 11 / ص 128 .

¹³⁷ - سورة الذاريات : الآيات 6-1 .

¹³⁸ - الفخر الرازي : التفسير الكبير (مرجع سابق) ط 3 ، تفسير سورة الذاريات ص 193-196 .

يصح مع الخالق ، إلا في حالة واحدة وهي : القسم بالله ، فإنه تقديس .

- 2- إن القرآن يتصرف في أساليبه ، فتارة يذكر الأمور الدالة على وجود الله ، ووحدانيته وقدرته ، في أسلوب القسم بها ، وتارة يسوقها مساق العظة والتوجيه ، وهي في الحالتين بينات على ما سيقف إليه ، لمن يتفكر فيها ، ويتدبر مراميها . قال تعالى : - (وفي أنفسكم أفلا تبصرون)¹³⁹ ، وفي آيات أخرى استدلال بالأرض ، والسماء ، والجبال ، والبحار ، وغيرها ، على طريق القسم بها ، ولا شك أن توجيه القسم بها على أنه استدلال للاحتجاج والاستشهاد ، يناظر ذكرها للعظة ، والتوجيه ، والاعتبار
- 3- ليس من المعقول أن يتصور إنسان مؤمن أن الله الخالق يقدس مخلوقاته التي أقسم الله بها ، وهي كما ذكر القرآن الكريم مرارا ، مسخرة طائعة لله ، لا تملك لنفسها ولا لغيرها ، نفعا ولا ضرا .
- 4- على أن القرآن الكريم قد يذكر الآيات الدالة ، ثم يقسم بالله سبحانه ، كأنه قد مهد بذكرها ، لبيان المراد من الاستدلال بها ، قال تعالى : (وفي الأرض آيات للموقنين . وفي أنفسكم أفلا تبصرون . وفي السماء رزقكم وما توعدون . ف ورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون)¹⁴⁰ .
- ومعنى هذا : أن الآيات المنبثه في الأرض وما عليها ، وفي النفوس وأحوالها وأسرارها ، وفي السماء ونجومها وسحبها ، كلها أدلة على وجود الله وقدرته ، ودلائل على صدق النبوة والبعث ، والقرآن ، ولهذا عقب بالقسم بذاته العلية ، وهذا القسم بالذات العلية مراد به التقديس ، لأنه بالله المعبود بحق ، ولأنه متضمن الاستدلال بما تدل عليه السماء والأرض من بينات على وجود الله تعالى ، وعلى صدق محمد - عليه الصلاة والسلام - .

¹³⁹ - سورة الذاريات : آية 21.

¹⁴⁰ - سورة الذاريات : الآيات 20 ، 21 ، 22 ، 23 .

5- ثم إذا رجعنا إلى الأقسام القرآنية وأجوبتها ، وجدنا ملاءمة بينهما ، وأدركنا أن المناسبة قوية بين القسم والمقسم به ، وهذا يعزز أنها أقسام استدلالية ، من ذلك مثلا :

قول الله تعالى : (والضحى . والليل إذا سجى . ما ودعك ربك وما قلى)¹⁴¹ .
أقسم - عز وجل - بآيتين عظيمتين من آياته وهما : الضحى ، والليل إذا سجى ، يقول السيوطي مجليا التلاؤم بين هذا القسم وجوابه : - (وتأمل مطابقة هذا القسم ، وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه ، حتى قال أعداؤه : ودع محمدا ربه ، فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل ، على ضوء الوحي ونوره ، بعد ظلمة احتباسه واحتجابه)¹⁴² .
ويمكننا أن نجمل أغراض القسم في القرآن الكريم فيما يلي :

- 1- تأكيد الخبر وتقريره ، وتلك عادة العرب الذين كانوا يقطعون كلامهم بالقسم ، لأن (القصـد بالقسم تحقيق الخبر وتوكيده)¹⁴³ . وهذا الغرض يظهر لنا إذا علمنا أن المقسم عليه كثيرا ما يكون من الأمور الخفية الغائبة ، فيقسم عليها لإثباتها ، مثل قوله تعالى : (لا أقسم بيوم القيامة . ولا أقسم بالنفس اللوامة . أحسب الإنسان ألن نجمع عظامه . بلى قادرين على أن نسوي بنانه)¹⁴⁴ فالقسم في كلام الله (يزيل الشكوك ، ويحبط الشبهات ، ويقيم الحجة ، ويؤكد الأخبار ، ويقرر الحكم في أكمل صورة)¹⁴⁵ .
- 2- لفت الأنظار إلى الكون وما يحويه من أسرار عجيبة ، وما فيه من نظام بديع محكم¹⁴⁶ ، إذ كل يجري

¹⁴¹ - سورة الضحى : الآيات : 1 ، 2 ، 3 .

¹⁴² - السيوطي : الإتقان في علوم القرآن ، ج 4 / ص 51 .

¹⁴³ - السيوطي : الإتقان في علوم القرآن ، (مرجع سابق) ج 2 /

132 .

¹⁴⁴ - سورة القيامة : الآيات 1 / 2 ، 3 ، 4 .

¹⁴⁵ - مناع القطان : مباحث في علوم القرآن ، ص 291 .

¹⁴⁶ - انظر : د. عبد الجليل عبد الرحيم : لغة القرآن الكريم ، ص 267 .

إلى أجل مسمى ، وكل في فلك يسبحون ، فجاء
القسم في القرآن الكريم على هذه الأمور لأجل ذلك

3- إثبات صدق الرسول -صلى الله عليه وسلم- إذ
العرب كانت تعتقد أن الأيمان الكاذبة تدع الديار بلاقع
، وأنها تضر صاحبها . وقد كان إكثار النبي -صلى الله
عليه وسلم- من الحلف بأمر الله تعالى ، مثل قوله
تعالى : (ويستنبئونك أحق هو قل إي وربي إنه لحق
وما أنتم بمعجزين) ¹⁴⁷ . وقوله تعالى (وقال الذين
كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم) ¹⁴⁸ .
ومع قسمه -صلى الله عليه وسلم- لم يصب بسوء
ما، بل ارتفع شأنه وعلا ذكره -صلى الله عليه وسلم- ،
فكان دليلا على صدقه . ¹⁴⁹

4- إبراز المعقول في صورة المحسوس ، وذلك أن
الأمر المعقول إذا صور في شيء حسي ، فإن العقل
يستوعبه ، أكثر ما لو كان مجردا عن الحس ، ومثله
تشبيه الوحي بالضحي في رابعة النهار ، وتشبيه
الباطل بالليل ، وانتصار الحق بالنهار ، إشارة إلى أن
الليل البهيم ، لا بد وأن يعقبه صبح مشرق بهيج ، يبدد
ظلامه وظلماته ، وكذلك ظلام الشرك والجهل ، لا بد
وأن يعقبه نور الحق واليقين .

5- تصحيح العقائد الباطلة ، فالقسم بالنجم إذا هوى ،
وبالكواكب ، وبالشمس ، والقمر ، فيه رد على من
اعتقد أنها آلهة ، وأن لها تصرفا في العالم السفلي .
6- لفت الأنظار إلى أحداث بارزة ، كان لها أكبر الأثر
في تاريخ البشر ، وذلك الغرض يظهر في القسم
بالأمكنة مثل (الطور) ، فالقسم به فيه إشارة إلى
ماكان عند ذلك الجبل من الآيات التي ظهرت لموسى
-عليه السلام- ، والقسم بالبلد الأمين (وهذا البلد
الأمين) فيه إشارة إلى حادثة ظهور النور المحمدي

¹⁴⁷ - سورة يونس : آية / 53 .

¹⁴⁸ - سورة سبأ : آية / 3 .

¹⁴⁹ - انظر : د. عبد الجليل عبد الرحيم : لغة القرآن الكريم ، ص 267.

من هذا البلد الأمين ، ذلك النور الذي بدد ظلمات الجهل والضلال ، ثم شمع في أفاق الدنيا وملاً جنباتها ، إلى آخر ما هنالك من أهداف وأغراض¹⁵⁰ .

المبحث السادس

الأمر المقسم عليها في القرآن الكريم :
يمكن إجمال الأمور المقسم عليها في القرآن الكريم في أصول أربعة ، هي أسس الإيمان ، وهي :

الأول :- تثبيت أساس التوحيد .

الثاني :- تقرير أمر النبوة ، والإشادة بصدق الكتاب الحكيم .

الثالث :- إثبات الحياة الأخرى ، وما يتصل بها من حساب ، فثواب أو عقاب .

الرابع :- توضيح المهم من أحوال الإنسان وتصرفاته في هذه الحياة .

أما الأصل الأول وهو تثبيت أساس التوحيد : فيدخل تحت هذا الأصل قوله تعالى : - (والصفات صفا . فالزاجرات زجرا . فالتاليات ذكرا . إن إلهكم لواحد)¹⁵¹ .

قال الشيخ طه الراوي : (أقسم تعالى بنفوس الغزاة التي تقاتل في سبيل الحق متحدة مع بعضها كالبنيان المرصوص ، وبهذا الإتحاد والتراس تزجر المبطلين ، وتهديهم إلى سبيل الرشيد ، أقسم على أنه لا معبود بحق إلا إله واحد لا شريك له ، فهو قسم بالمتحدين على ثبوت التوحيد ، وفيه إشارة إلى أنه كما أن القوة والنجاح وليدة الإتحاد ، فكذلك وحدانية الصانع ، وانعدام الشريك هي السبب في إبداع هذا الكون ، وإحكام نظامه ، إذ لو كان مع الله آلهة أخرى

¹⁵⁰ -د. سمير عبد العزيز : الكشف والبيان في علوم القرآن ، ص 285-287. بتصرف واختصار . وانظر : د. عبد الجليل عبد الرحيم : لغة القرآن الكريم ، ص 268 . وأحمد أحمد بدوي : من بلاغة القرآن ، ص 170-173.

¹⁵¹ - سورة الصفات : الآيات 1 ، 2 ، 3 ، 4 .

لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ، وبذلك يختل نظام الكون ، وتندثر معالمه ¹⁵² .
وأكثر المفسرين على أن المراد بالصفات ،
والزاجرات ، والتاليات ، جماعة من الملائكة ، موصوفة
بهذه الصفات ، وهو الأظهر والأرجح ، إذ تؤيده الآيات
القرآنية ، فقد جاء وصف الملائكة بأنهم صافون في
قوله تعالى : (وإنا لنحن الصافون ، وإنا لنحن
المسبحون) ¹⁵³ في نفس السورة ، كما جاء وصفهم
بذلك فيما رواه مسلم في صحيحه عن حذيفة قال :
قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (فضلنا
على الناس بثلاث ، جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ..
الحديث) ¹⁵⁴ ، ولأن هذا القول هو المأثور عن جماعة
من الصحابة والتابعين ¹⁵⁵ .
فيكون المعنى : وحق الملائكة الذين يصفون أنفسهم
صفا لعبادة الله تعالى وطاعته ، والذين يزجرون
غيرهم عن ارتكاب المعاصي ، أو يزجرون السحاب إلى
الجهات التي كلفهم الله بدفعه إليها ، والذين يتلون
آيات الله المنزلة على أنبيائه ، تقربا إليه ، وطاعة له ..
إن ربكم أيها الناس لواحد لا شريك له في ذاته ، ولا
في صفاته ، ولا في أفعاله ، ولا في خلقه ..
ومما جاء في الأصل الثاني : وهو تقرير أمر النبوة ،
والإشادة بصدق الكتاب الحكيم :
قوله تعالى : - (يس . والقرآن الحكيم . إنك لمن
المرسلين) ¹⁵⁶ .
أقسم جل شأنه بالقرآن الحكيم ، المعجز في نظمه ،
وبديع معانيه ، المتقن في تشريعه وأحكامه ، الذي بلغ
أعلى طبقات البلاغة ، على أن محمدا - صلى الله عليه
وسلم - رسول من المرسلين ، والتأكيد بالقسم لشدة

¹⁵² - طه الراوي : مباحث إسلامية (مرجع سابق) ص 13 .

¹⁵³ - سورة الصافات : الآيتان ، 165 ، 166 .

¹⁵⁴ - الإمام مسلم : صحيح مسلم ، كتاب المساجد ، ج 2 ، ص 63 .

¹⁵⁵ - انظر الألوسي : روح المعاني ، ج 23 / ص 64 . ود. محمد السيد

الطنطاوي : التفسير الوسيط ج 22 / ص 82 .

¹⁵⁶ - سورة يس : الآيات 1 ، 2 ، 3 .

إنكارهم لرسالته . ومن المعلوم أن القرآن معجزة من معجزات رسولنا - صلى الله عليه وسلم - وتحدى العرب أن يأتوا بحديث مثله ، أو بعشر سور من مثله مفتريات ، أو بسورة من مثله ، فلم يستطيعوا ، فإقسام الله بالقرآن على صحة الرسالة ، إقسام بالمعجزة التي تؤيد تلك الرسالة ، والدليل الذي يثبتها ، كأنه قال : إنك من المرسلين بدليل القرآن الحكيم ، فأخرج الدليل مخرج اليمين ، لأن المتكلم - كما قال الفخر الرازي - : (إذا شرع في أول كلامه يحلف ، يعلم السامع أنه يريد أن يتكلم بكلام عظيم ، فيصغي إليه) ¹⁵⁷ تمام الإصغاء ، ويقبل على سماعه كل الإقبال ، ثم إن في القسم بالمعجزة تذكيراً بها ، وتبكيता للمعاندين على الإغضاء عنها ، ولا أدل على هذا التوجيه من أن الله - جل شأنه - عودنا في كتابه العزيز ، تصريف الآيات والبراهين ، التي يسوقها دلائل على أصول الإيمان ، فتارة يذكرها على سبيل الآية والعبرة ، وتارة يذكرها كأنها خبر من الأخبار ، وأحياناً يذكرها بأسلوب القسم .

ومنه قوله تعالى : - (والسماء ذات الحبك . إنكم لفي قول مختلف .) ¹⁵⁸ إذ نجد فيه تلاؤم جواب القسم (إنكم لفي قول مختلف) مع هذا الوصف الذي وصفت به السماء (ذات الحبك) ، فالحبك : هي الطرائق ، ولما كان هذا الوصف مشعراً بالتشعب والاختلاف ..

جاء الجواب [(إنكم لفي قول مختلف) قولهم في الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، ساحر ، وشاعر ، ومجنون وفي القرآن ، شعر وسحر ، وأساطير الأولين ، وعن الضحاك : قول الكفرة : لا يكون مستويا ، إنما هو متناقض مختلف] ¹⁵⁹

¹⁵⁷ - الفخر الرازي : التفسير الكبير (مرجع سابق) تفسير سورة الذاريات ، ج 27 / ص 194 .

¹⁵⁸ - سورة الذاريات : الآيتان / 7 ، 8 .

¹⁵⁹ - الزمخشري : الكشاف (مرجع سابق) ، ج 4 / ص 14 .

وقال البيضاوي : (ولعل النكتة ¹⁶⁰ في هذا القسم تشبيه أقوالهم في اختلافها وتنافي أغراضها ، بالطرائق للسموات في تباعدها ، واختلاف غاياتها) ¹⁶¹

ومنه كذلك قوله تعالى : (والنجم إذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى . علمه شديد القوى) ¹⁶² . قال المفسرون : أراد بالنجم : جنس النجوم أو أراد به الثريا على ما اشتهر عند العرب . وهوى النجم : غرب أو طلع . يقال : هوى هوىاً - بفتح الهاء - إذا سقط وغرب ، وهوى هوىاً - بضم الهاء - إذا على وصعد . وما ضل : أي ما عدل عن الطريق المستقيم ، ووما غوى : أي ما اعتقد باطلا ، والغي : خلاف الرشده ، وهو الجهل مع اعتقاد فاسد ¹⁶³ .

أقسم - سبحانه - بالكوكب الذي ينبعث منه النور ، وتكون به الهداية في ظلمات البر ، والبحر ، على كون محمد - صلى الله عليه وسلم - سالكا جادة الرشده والهداية ، ونفى عنه ما كانت قريش تنسبه إليه من الضلال في ترك ما كانت عليه آبائهم ، وأئمة الكفر منهم ، وأن ما جاء به من الكتاب ليس من عنده ، وإنما هو وحي إلهي . وكانت العرب تضرب الأمثال بهداية النجم والإهتداء به ، ومما يؤثر عنهم في هذا قولهم : فلان أهدى من النجم ، ويقولون : لا يضل فلان حتى يضل النجم . وإلى هذا أشار القرآن نفسه فقال : - (وبالنجم هم يهتدون) ¹⁶⁴ .

¹⁶⁰ - يريد بيان مناسبة المقسم به هنا ، وهو قوله : والسمااء .. الآية ، للمقسم عليه ، وهو قوله : إنكم .. الآية . انظر : حاشية الشهاب : ج 8 / ص 95.

¹⁶¹ - تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) : بهامش حاشية الشهاب ، ج 8 / ص 95 .

¹⁶² - سورة النجم : الآيات 1-5.

¹⁶³ - حاشية الشهاب (عناية القاضي وكفاية الراضي) : وبهامشها تفسير البيضاوي (مرجع سابق) ج 8 / ص 109 .

¹⁶⁴ - سورة النحل : آية / 16 .

والمناسبة بين المقسم به والمقسم عليه ظاهرة جلية ، فالمقسم به : هو النجم الذي لا يضل السبيل ، وبه يهتدي السائرون ، والمقسم عليه : كون محمد - صلى الله عليه وسلم - على محجة الهداية ، وكون ما جاء به ليس إلا وحيا تلقاه من عالم الغيب والشهادة . وإنما قال : ما ضل صاحبكم ، ولم يقل : ما ضل محمد ، تأكيدا لإقامة الحجة عليهم لأنهم مصاحبون له طوال أربعين سنة قبل البعثة ، وهم أعلم الخلق به ، وبحاله ، وبأقواله ، وبأعماله ، وأنهم في تلك المدة الطويلة لم يشاهدوا منه إلا الصدق ، والأمانة ، والعقل الراجح ، والقول السديد ، فقولهم بعد بعثته

- صلى الله عليه وسلم - إنه ساحر ، أو مجنون ، هو نوع من كذبهم البين ، وجهلهم المطبق .¹⁶⁵

ومما جاء في الأصل الثالث :

في إثبات الحياة الأخرى ، وما يتصل بها من حساب ، فثواب أو عقاب ، قوله تعالى : - (والذاريات ذروا . فالحاملات وقرا . فالجاريات يسرا . فالمقسمات أمرا . إنما توعدون لصادق . وإن الدين لواقع .)¹⁶⁶ أقسم الله - جل شأنه - بأمور أربعة على أن ما توعد به من البعث ، وأمر الساعة حق ، وعلى أن الدين وهو الجزاء ، من ثواب أو عقاب ، واقع لا محالة ، فهو قسم على البعث ، وعلى الجزاء .

قال الفخر الرازي : - (الأمور الأربعة - التي أقسم الله بها هنا - جاز أن تكون أمورا متباينة ، وجاز أن تكون أمرا له اعتبارات أربع ، الأول : أن الذاريات : هي الرياح ، والحاملات : هي السحاب ، والجاريات : هي السفن ، والمقسمات : هي الملائكة الذين يقسمون الأرزاق . والثاني : وهو الأقرب : أن هذه صفات أربع للرياح ، فالذاريات : هي الرياح التي تنشئ السحاب ،

¹⁶⁵- انظر : الشهاب الخفاجي : حاشية الشهاب (مرجع سابق) : ج 8 / ص 109- 110 و سليمان بن عمر الشهير بالجمل : الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية : ج 4 / ص 222- 223 .

¹⁶⁶- سورة الذاريات : الآيات 1، 2، 3، 4، 5، 6 .

والحاملات : هي الرياح التي تحمل السحب التي هي بخار المياه .

والجاريات : هي الرياح التي تجري بالسحب بعد حملها . والمقسمات : هي الرياح التي تفرق الأمطار على الأقطار ..) ¹⁶⁷ . وعلى هذا تكون الفاء لبيان ترتيب هذه الصفات في الوجود ، فإن الذاريات تثير البخار ، فينعقد سحابا ، فتحمله الرياح ، فتفرقه على الأقطار .

والمقسم عليه : صدق الموعود من البعث والنشور ، ووقوع الحساب ، فالثواب أو العقاب . فالمناسبة بين المقسم به ، والمقسم عليه واضحة ، فالقادر على تأليف السحاب من ذرات البخار ، بواسطة الرياح الذارية ، ثم إعادته بعد ذلك إلى سيرته الأولى ، قادر على إعادة الإنسان ، وتأليف أجزائه المتفرقة .
وقد أقسم هنا بالرياح والسحاب على البعث والجزاء ، وذكرهما في سورة الروم على سبيل الآية والعبرة ، فقال تعالى : (الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ، ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ، وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين ، فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير) ¹⁶⁸ .

فالقادر على إرسال الرياح ، وإثارة السحب ، وإحياء الأرض بعد موتها ، قادر على إحياء الموتى ¹⁶⁹ .

ومما جاء في الأصل الرابع ، وهو بيان أحوال الإنسان وتصرفاته المختلفة :

¹⁶⁷ - الفخر الرازي : التفسير الكبير (مرجع سابق) ج 27 / ص 195 .

¹⁶⁸ - سورة الروم الآيات /48، 49 ، 50 .

¹⁶⁹ - انظر : سليمان بن عمر : الفتوحات الإلهية ، ج 4 / ص 201 .

قوله تعالى : - (والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون) ¹⁷⁰ .

والمقسم عليه في هذه السورة يتكون من أمور ثلاثة :
 أ: - دليل من أدلة القدرة الإلهية على البعث ، والجزاء ، وهو قوله تعالى : (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم) .

ب: - وعيد صارم شديد ، وهو قوله تعالى : (ثم رددناه أسفل سافلين) وأسفل سافلين : النار على الصحيح ، أو هو سجين موضع الفجار ، كما أن عليين موضع الأبرار .

ورددناه : معناه ونرده ، فعبر بالماضي موضع المضارع المستقبل ، إيذانا بأن الرد أسفل سافلين واقع لا محالة ، وتشبيها للمستقبل المحقق وقوعه ، بالماضي الواقع فعلا .

ج : - وعد حسن ، وهو قوله تعالى : (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون) ¹⁷¹ أي : مقطوع . والقسم في هذه السورة أكثر انصبابا على الأمرين الأخيرين ، أي : على الوعد والوعيد

قال المفسرون ¹⁷² : - أراد بالتين والزيتون : المكان الذي كثر شجرها فيه ، على سبيل التجوز ، عبر بالحال وهو التين والزيتون ، وأراد المحل ، وهو الأرض المقدسة ، التي ظهر فيها عيسى - عليه السلام - وقالوا : إن هذا المعنى هو الذي يتناسب مع طور سينين ، ومع البلد الأمين ، والتعبير بالحال عن المحل مألوف في الكلام العربي ، قال تعالى : (وأما

¹⁷⁰ - سورة التين : الآيات 1، 2، 3، 4، 5، 6.

¹⁷¹ - سورة التين : آية / 6 .

¹⁷² - انظر : الألوسي (مرجع سابق) : روح المعاني ، ج 30 / ص 221-223. و اسماعيل بن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ج 4 / ص 526 .

الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون¹⁷³ ، أي : ففي جنته التي تحل فيها الرحمة . وعلى هذا يكون الله قد أقسم على خلق الإنسان وتعذيبه وإثابته بأمكنة ثلاثة ، هي مظاهر أنبيائه ورسله أصحاب الشرائع العظام المعروفة ، أقسم بأرض بيت المقدس مظهر رسوله وكلمته وروحه - عيسى بن مريم - وفيها نزل الإنجيل عليه ، ثم أقسم بالجبل الذي كلم الله موسى عليه تكليما ، وناداه من جانب الطور الأيمن من البقعة المباركة من الشجرة التي فيه ، أن اذهب إلى فرعون إنه طغى ، ثم أقسم بالبلد الأمين مظهر خاتم الأنبياء والمرسلين ، فتدرج من التين والزيتون ، إلى طور سينين ، إلى بلد الله الأمين ، فختم بموطن الرسالة الخاتمة ، أشرف الرسائل¹⁷⁴ .

أقسم بهذه الأمكنة الثلاثة التي هي مهبط الوحي والرسالة ، على أن ما سيلاقيه من ثواب أو عقاب ، إنما هو نتيجة إيمانه ، أو كفره وطغيانه ، بعد أن أرسل رسلا مبشرين ومنذرين . وكأنه جل شأنه يقول : (هأنذا قد أرسلت لكم الرسل ، فأناروا لكم الطريق ، وميزوا لكم الرشد من الغي ، فإن عصيتم فلکم أسفل سافلين ، وإن أطعتم فلکم أجر غير ممنون)¹⁷⁵ ويمكننا القول : إن الله تعالى أقسم بالشمس ، والقمر ، والنجوم ، والليل ، والنهار ، والبحر ، والعصر ، والسحاب ، والنفوس ، والملائكة ، وغيرها من المخلوقات ، وكلها آيات دالة على قدرته ، ووحدانيته ، وكماله ، وقد ذكرها في مواضع مختلفة من كتابه بغير أسلوب القسم .

¹⁷³ - سورة آل عمران : آية /107.

¹⁷⁴ - انظر : د. فاضل السامرائي : التعبير القرآني ، ص 299-309 .

¹⁷⁵ - ابن قيم الجوزية : التبيان في أقسام القرآن ، (مرجع سابق) ص 43-54.

المبحث السابع

بلاغة القسم القرآني :

بعد هذا الإيجاز يجدر بنا أن نتعرف على ما في أسلوب القسم من وجوه البلاغة ، لتكتمل النظرة ، وتتم الفكرة .

- 1- يمتاز أسلوب القسم بإيجازه ، ولهذا يهجم على السامع ، فيمتلك مشاعره ، ولعل العرب أكثرها منه ، وأفتنوا فيه لوجازته ، وهم إلى الإيجاز أميل في شعرهم ونثرهم ، ومن هنا راجت الأمثال بينهم وشاعت ، وذاعت الحكم والتوقيعات فيما بعد العصر الجاهلي ، وتسابقوا إلى تجديدها ، والاحتفاظ بها .
- 2- القسم ضرب من الأسلوب الإنشائي ، لا مناص للخصم من الإقرار به ، ولا وجه له في إنكاره ، فإن شاء أن ينكر ، انصب إنكاره على جواب القسم ، لا على القسم نفسه ، لأن الجواب خبر¹⁷⁶ لا إنشاء¹⁷⁷ . وقد يجمع القرآن الكريم بين القسم والوصف ، كالقسم بالقرآن المجيد واليوم الموعود ، والصفات صفا ، ففي هذا وأشباهه قسم ، ووصف للمقسم به ، ليكون الاستدلال أعظم في النفس وأوقع .
- 3- قد يحذف جواب القسم في القرآن ، وهو المقسم عليه ، فينتقل بعد القسم إلى كلام آخر ، لكنه مرتبط بالجواب المحذوف . والسرف في هذا أنه يسد على المخاطب المنكر طريق الفرار ، فلا ينتقل من القسم وهو إنشاء ، إلى الجواب وهو خبر ، لئلا يجاري المنكر في الجواب ، ثم ليكون القسم كالتمهيد والتنبيه ، فيسترعي سمع المخاطب ، فيرهف أذنيه ليستمع ما بعد القسم ، فإذا به يسمع ما يؤيد الاستدلال المقصود

¹⁷⁶ - الخبر : هو ما احتمل الصدق والكذب لذاته ، أي : لذات الخبر نفسه . وهذا بالطبع يخرج ما كان صادقا قطعاً ، وما كان كاذبا قطعاً . انظر : فضل حسن عباس : البلاغة فنونها وأفنانها ، مبحث الخبر ، ص 99 وما بعدها .

¹⁷⁷ - الإنشاء : ما لا يحتمل صدقا ولا كذبا . وهو قسمان : طلبي ، وغير طلبي . انظر : فضل حسن عباس : البلاغة فنونها وأفنانها ، (مرجع سابق) مبحث الإنشاء ، ص 147 وما بعدها .

من القسم نفسه ، كقوله تعالى : (ص والقرآن ذي
الذكر بل الذين كفروا في عزة وشقاق) ¹⁷⁸ ، فأقسم
بحرف من حروف الهجاء التي يتكون منها القرآن ،
على سبيل التحدي والتنبية على الإعجاز ، وأتبعه
بالقسم بالقرآن ، وحذف الجواب لدلالة التحدي عليه ،
كأنه قال : والقرآن ذي الذكر إنه كلام معجز ، ولكن
الكفار استكبروا ولم يدعوا إليه ، فعارضوا الرسول
وكذبوه .

أو كأنه قال : أقسم بالقرآن ذي الشرف العظيم ، إنك
لصادق فيما تبلغ عن ربك ، ولكن الكفار استكبروا
ولم يدعوا للحق ، وأصروا على العناد . أو أقسم
بالقرآن أن الأمر ليس كما يزعم هؤلاء الكفار ، بل هم
في استكبار ومخالفة ، وعداوة لمحمد .
4- إن من مزايا القسم أنه يسهل الجمع بين عدة أدلة
في جملة واحدة ، أو في جمل متلاحقة ، كما في سور:
التين ، والبلد ، والطور ، والشمس ، والليل ، والفجر ،
مع الإيجاز ، ولو أن الأدلة فصلت وبسط فيها القول ،
لفقد الكلام روعته وتأثيره .

5- يشرك القسم الإستدلالي السامع في استنباط
الدليل ، ويخفف من عناده وخصامه ، فيشعر أنه
تعرف وتأمل ، ولهذا كانت الأساليب الإنشائية كلها
أكثر اجتذاباً من الأساليب الخبرية . وهذا هو السبب
في أن الحاذق اللبق ينوع أساليبه ، ويرأوح بين
الإنشاء والخبر ، لينشط المخاطب ، ويشركه في
الفهم ، والبحث ، والاستنباط ، حتى ليتوهم أنه هو
الذي اهتدى إلى الحق بنفسه .

6- ومن ضروب بلاغة القسم أنه تقديم لتوثيق
الصدق قبل ذكر الدعوى ، لأنه يقرع أذني
المخاطب ، فيصغي ويترقب ما بعده ، ثم تجيء
الدعوى فيسهل قيادته لها ، ولكنه إذا فوجئ
بالدعوى التي ينكرها ، انصرف عنها ونفر منها .
وشتان ما بين قولك : (ما أنت بنعمة ربك بمجنون

178 - سورة ص : الآيتان 1، 2 .

. أقسم بالقلم وما يسطرون) ، وقوله تعالى : (ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون)
179

فسبحان من نفى عن رسوله - صلى الله عليه وسلم - التهمة قبل حكايتها .

الخاتمة

ظهرت لي من خلال دراستي الموجزة لأسلوب القسم الظاهر في القرآن الكريم ، بعض النتائج ، يمكن تلخيصها في النقاط التالية : -
1- لجأ القرآن الكريم إلى القسم جريا على عادة العرب في توكيد الأخبار ، لتستقر في النفس ، ويتزعزع فيها ما يخالفها ، وإذا كان القسم لا ينجح أحيانا في حمل المخاطب على التصديق ، فإنه كثيرا ما يوهن في النفس الفكرة المخالفة ، ويدفع إلى الشك فيها ، ويبعث المرء على التفكير الجاد والقوي فيما ورد القسم من أجله¹⁸⁰ .

2 - أقسم الله بجميع مخلوقاته ، شاهدها ومشهودها، ما نبصره وما لا نبصره . على وجوده ووحدانيته ، وقدرته ، ووقوع البعث ، وصدق النبي - صلى الله عليه وسلم - ، ولينبها على ما فيها من روعة ، تدفع إلى التفكير في خالقها .
3- إن القسم بالله تعالى مقصود به التقديس ، لأنه الخالق الذي يستوجب التقديس والعبادة ، وما عدا ذلك فالتقديس والتشريف غير لازمين للقسم ، وإن كان المقسم به عظيما في ذاته ، وعظيما عند خالقه .

179 - سورة القلم : الآيتان 1، 2 .

180 - انظر : أحمد أحمد بدوي : من بلاغة القرآن ، ص 170 .

4 - صوغ الدليل في صورة القسم ، فيه توكيد للمقسم عليه ، وتنبيه للسامع إليه ، وتمهيد له بما يقرره في الذهن .

5 - إن القرآن قد يستعمل أسلوب القسم بغير مقسم به كما جرى في العرف العربي ، نحو قوله تعالى : (أخرج منها مذءوما مدحورا لمن تبك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين) ¹⁸¹ ، ونحو قوله تعالى : (كتب الله لأغلين أنا ورسلي) ¹⁸² .

6 - باستقراء آيات الله البينات ، وجدت أن القسم الوارد فيها غالبا ما يكون بالواو ، وأنه لا يكون إلا من الله تعالى في الأعم الأغلب ، فيقسم الله عز وجل بما شاء على ما شاء .

7 - في إيراد الدليل بصورة القسم ، إيجاز في إيضاح ، أو إيضاح في إيجاز ¹⁸³ .

¹⁸¹ - سورة الأعراف : آية / 18 .

¹⁸² - سورة المجادلة آية / 21 .

¹⁸³ - انظر محاضرة الأستاذ عمر أبو النصر بنادي دار العلوم - جامعة القاهرة ، في (5 يوليو عام 1943 م) . ونشرت في مجلة دار العلوم بمصر في شهر سبتمبر من نفس العام . (بتصرف واختصار) .

مصادر ومراجع البحث

- 1- الإتقان في علوم القرآن : جلال الدين السيوطي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، مكتبة دار التراث ، القاهرة .
- 2- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم : لأبي السعود بن محمد العمادي ، ط 2 ، دار الفكر ، بيروت .
- 3- أساس البلاغة : جار الله محمود الزمخشري ، كتاب الشعب ، دار مطابع الشعب ، مصر ، 1960م
- 4- أسلوب القسم واجتماعه مع الشرط في رحاب القرآن الكريم : علي أبو القاسم عون منشورات جامعة الفاتح ليبيا ، 1992م.
- 5- إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم : الحسين بن أحمد المعروف بابن خالويه ، المكتبة الثقافية ، بيروت .
- 6- أمالي ابن الشجري : هبة الله بن علي بن محمد بن حمزة الحسني العلوي ، تحقيق ودراسة : د. محمود محمد الطناحي ، مكتبة الخانجي ، القاهرة .
- 7- إمعان في أقسام القرآن : المعلم عبد الحميد الفراهي ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، 1349هـ .
- 8- إملاء ما من به الرحمن في وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن : لأبي البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري ، على هامش (الفتوحات الإلهية) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
- 9- أنوار التنزيل وأسرار التأويل : القاضي ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي ، بهامش حاشية الشهاب الخفاجي ، دار صادر ، بيروت .
- 10- أيمان العرب في الجاهلية : أبو اسحاق بن عبد الله النجيمي ، تحقيق : محب الدين الخطيب ، ط 2 ، الدار السلفية بالقاهرة .

- 11- أيام العرب في الجاهلية : محمد أحمد جاد المولى وزملاؤه ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت .
- 12- البحر المحيط : محمد بن يوسف بن حيان الغرناطي الأندلسي ، مطبعة السعادة ، مصر ، 1329هـ .
- 13- البلاغة فنونها وأفنانها : أ.د. فضل حسن عباس ، ط 2 ، دار الفرقان ، عمان .
- 14- البيان والتبيين : لأبي عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ ، تحقيق حسن السندوبي المكتبة التجارية الكبرى ، ط 2 ، 1932م ،
- 15- التبيان في أقسام القرآن : شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية ، تصحيح محمد حامد الفقي ، ط 1 ، مطبعة حجازي بالقاهرة ، سنة 1933م .
- 16- التعريفات : علي بن محمد الشريف الجرجاني ، مكتبة لبنان ، بيروت .
- 17- التفسير البياني للقرآن الكريم : د . عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) ، ج 1 ، ط 7 ، دار المعارف ، القاهرة .
- 18- تفسير سورة النجم : دراسة تحليلية وموضوعية ، د. عبد ربه فرحات البدرأوي ، دار الاسلام للطباعة والنشر ، المنصورة ، 1415هـ - 1994م .
- 19- تفسير القرآن العظيم : أبو الفداء اسماعيل بن كثير ، ط المنار ، بالقاهرة ، سنة 1347هـ .
- 20- التفسير الكبير : (مفاتيح الغيب) : محمد فخر الدين الرازي ، ط 3 ، دار إحياء التراث العربي بيروت .
- 21- التفسير الوسيط للقرآن الكريم : د. محمد السيد طنطاوي ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، 1406 هـ - 1985م .
- 22- الجامع لأحكام القرآن : لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

- 23- حاشية الشهاب المسماة : عناية القاضي وكفاية
الراضي على تفسير البيضاوي ، دار صادر ، بيروت
- 24- خصوصية المعنى لألفاظ القرآن الكريم : محمود
سليم محمد هياجنة ، ط 1 ، اربد ، المملكة الأردنية
الهاشمية .
- 25- ديوان ابن قيس الرقيات ، ط ، دار بيروت للطباعة
والنشر .
- 26- ديوان امرئ القيس : صنعه حسن السندوبي ،
المطبعة الرحمانية بمصر ، سنة 1930م .
- 27- ديوان لبید بن ربیعة العامري : دار صادر ، بيروت .
- 28- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع
المثاني : شهاب الدين محمود الألوسي ، دار
الفكر ، بيروت .
- 29- شرح المفصل : موفق الدين يعيش بن علي بن
يعيش النحوي ، إدارة الطباعة المنيرية .
- 30- الصحاح في اللغة والعلوم : تجديد صحاح
الجوهرى ، طباعة دار الحضارة العربية ، بيروت .
- 31- صحيح مسلم بشرح الإمام النووي : مؤسسة
مناهل العرفان ، بيروت .
- 32- الفتوحات الإلهية ، بتوضيح تفسير الحلالين :
سليمان بن عمر العجلي الشهير بالجمال . مطبعة
عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة .
- 33- الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن
الكريم : د. محمد بن عبد الرحمن بن صالح الشايع
، ط 1 ، مكتبة العبيكان ، الرياض .
- 34- القاموس المحيط : مجد الدين بن يعقوب
الفيروزآبادي ، ط 2 ، مكتبة ومطبعة مصطفى
البابي الحلبي ، بمصر .
- 35- الكتاب : لأبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر
سبويه ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط 1 ، دار
الجيل ، بيروت .

- 36- الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل : جار الله محمود الزمخشري ، ط 1 ، دار الفكر ، بيروت .
- 37- الكشف والبيان في علوم القرآن ، د. سمير عبد العزيز شيلوة ، مطبعة دار البيان بمصر .
- 38- لسان العرب : جمال الدين محمد (ابن منظور) ، عني بتصحيحها أمين محمد عبدالوهاب وزميله ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
- 39- لطائف المنان وروائع البيان في دعوى الزيادة في القرآن : أ. د. فضل حسن عباس ، ط 1 ، دار النور ، بيروت
- 40- لغة القرآن الكريم : د. عبد الجليل عبد الرحيم ، مكتبة الرسالة الحديثة ، عمان ، ط 1 ، 1981م
- 41- مباحث إسلامية ، للعلامة طه الراوي ، جمع تحقيق حارث طه الراوي ، مطبعة أسعد ، بغداد ، 1982م .
- 42- مباحث في علوم القرآن : مناع القطان ، ط 3 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .
- 43- المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها : لأبي الفتح عثمان بن جني ، (الجزء الأول) تحقيق علي النجدي ناصف ، وعبد الحليم النجار ، وعبد الفتاح شلبي ، القاهرة ، 1386هـ ، و (الجزء الثاني) : تحقيق علي النجدي ناصف ، وعبد الفتاح شلبي ، القاهرة ، سنة 1389هـ .
- 44- مختار الصحاح : محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ، عني بترتيبه محمود خاطر بك ، المطبعة الأميرية ، بالقاهرة ، سنة 1340هـ - 1922م .
- 45- المسائل المشككة المعروفة بالبغداديات : لأبي علي الفارسي تحقيق ودراسة صلاح الدين عبد الله الشيكاي ، مطبعة العاني ، بغداد .
- 46- المسند : عبد الله بن الزبير الحميدي ، تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمي ، عالم الكتب ، بيروت .

- 47- معاني القرآن : لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء ،
(الجزء الأول) : تحقيق أحمد يوسف نجاتي ،
وزميله ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط 2 ،
1980م . و (الثاني والثالث) عالم الكتب ،
بيروت ط 2 ، سنة 1980 م .
- 48- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب : جمال الدين بن
هشام الأنصاري ، تحقيق مازن المبارك وزملاؤه ،
ط 6 ، دار الفكر ، بيروت .
- 49- مفردات ألفاظ القرآن : الحسين بن محمد
الراغب الأصفهاني ، تحقيق صفوان عدنان
داوودي ، ط 1 ، سنة 1416هـ - 1996م . بيروت .
- 50- من بلاغة القرآن : أحمد أحمد بدوي ، مطبعة
نهضة مصر ، القاهرة ، 1950م ، ص 170 .
- 51- اليمين والآثار المترتبة عليه : د. أبو اليقظان
عطية الجبوري ، ط 2 ، 1986م ، دار النهضة
الجديدة ، بيروت .
- 52- محاضرة للأستاذ عمر أبو النصر بنادي دار العلوم ،
في يوليو سنة 1943م ، ونشرتها صحيفة دار
العلوم في سبتمبر 1943م .
- 53- مقال د. أحمد الحوفي : أساليب القسم في اللغة
والقرآن الكريم ، نشرته مجلة الأزهر .
ولدي صورة عنه ، إلا أنني أنسيت حين صورته أن
أكتب رقم العدد وسنة صدوره .

